

قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس

شفتاه


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



شفتاه

إحسان عبد القدوس

الطبعة الثانية

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر
العربية ٦ شارع
الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس: ٥٧٠٩٣٠

الغلاف بريشة : عمرو فهمى

الرسوم بريشة : جمال كامل



شرف المهنة

بلا ادعاء ، وبلا مبالغة ، أستطيع أن أقول أنى أمهــر عـــامل تليفـــون فى جميع دور الصحف.. لا صحف الجمهـوريـة العـربيـة المتحـدة وحدهـا ، بل صحف الشرق الأوسط كلـــه .. ولـــولا جهلى بـاللغـــات الأجنبيـــة لاستطعت ان اقول انى امهـر عامل تليفون فى جميع صحف العالم..

وعامل التليفون فى الصحيفة، ليس مجرد واحد من العمال أو الموظفين.. انه قلب الصحيفـة.. القلب الذى ينبع منـه الدم، ويعود إليـه الدم، وتتجمع عنـده كل العـروق والشرايين.. وقد لا يعـرف القـراء اهميتنـا داخل العمل الصحفى.. ولكن هذا ليـس دليلاً على عدم أهميتنـا.. ثقوا اننى أكثـر أهمية للصحيفة من الأستـاذ مرجـوشى عوض الله سكـرتير التحريـر.. بل أكثر أهمية من الأستاذ فهمى فهيم فهوم الكـاتب المعروف.. انى وحدى استطيع ان ابعث الحياة فى الجريدة، واستطيع ان اشل حركتهـا واجعل منها جزيرة معزولة عن العالم محاطة بصخور.. مشغول.. مابيردش.. مافيش حرارة.. إلى آخر هذه الأنواع من الصخور.

انى استطيع ان احصـل لك على أيـــة نمـرة.. واستطيـع ان أصلك بأى شخص تريد محادثته ولا تعرف مكـانه، فأجده لك من تحت الأرض، سواء كان فى عملـه أم فى كباريـه، مع زوجته أو مع عشيقتـه.. واستطيع ان اقطع المكـالمة التليفـونيـة على أى متحـــدث فى أنحـاء الجمهـوريـة، وأن اصلك بالاسكندرية بعد دقيقتين ، وأصلك ببيروت أو نيـويورك بعد ساعتين.. إنى أستطيع ان افعل العجـائب.. كيف؟! هذا هـو سر المهنة.. سر اكتسبتـه بعد تجارب خمسة عشر عاما جالسا أمام جهاز «السويتش» فى دار الجريدة.

ورغم ذلك ..

رغم كل ذلك، فـانى الآن عـاطل.. ومضت أكثـر من ستـة شهـور وأنـا عاطل..

لست عاطـلا فحسب، بل مفلساً.. لقـد كان مـرتبى الذى أتقـاضـاه من الجريدة.. ثمانيـة عشر جنيها فى الشـهر، ومجمـوع «البقشيش» أو الاتاوات التى أفـرضـهـا على السـادة محررى ومـوظفى الـدار تبلغ حـوالى العشرين جنيها فى الشـهر أى أن دخلى كان لايقل عن ثمانية وثلاثين جنيها فى الشـهر، وأحيـانـا يصل إلى أربعين جنيها، وكنت ادخـن سجائر بلمـونت، واتنـاول غـدائى عند أبـو شقرة، وألعب الطـاولـة فى قهوة الشمس، والآن، مـا عكش سيجارة سلف!

كيف حدث هذا ؟

كيف أصبحت عاطلاً ؟

انها قصة طويلـة تبدأ عندما التحق الأستاذ زكى شحاتـة بالدار، وعين رئيسا للتحـرير.. وقـد حيرتنى شخصية الأستـاذ زكى عندمـا رأيته لأول مـرة، كان أنيقـاً، مبتسما، رقيقاً، مهـذبـاً، يلمع وجهه دائما كأنـه يدهنـه بالـورنيش.. ولكن هذا المظهر لم يخدعنـى، ولم أصدر حكمى عليه عنـدما رأيته، فـانى لم اتعود ان أعـرف الأشـخاص بعينى، بل انى أعـرفهم بأذنى، خلال محادثاتهم فى التليفون..

نعم .. انى استمع إلى جميع المحادثات التليفـونية التى تتم عن طريقى.. ليست جميعها، بل معظمها، فان بعض هذه المحادثات تبلغ من السخافة إلى حد ارفض معه الاستماع اليها..

هل بدأتم تسيئون الظن بى، وتوجهون لى اللوم؟

لا .. أرجوكم .. ان المثل يقول «طبـاخ السم، يذوقه»، وانا يجب أن أذوق كل محادثة تليفونية أصل بين طرفيها.. انه حق لى .. حق بديهى.. وليحاول أى واحد فيكم ان يجلس أمام «السـويتش» ثم لايستمع إلى المحادثات التى تدور خلال الأسلاك.. مستحيل.. هذا أقوى من طبيعة البشر..

وقـد تكـونت لى مـوهبـة خاصـة من طـول مـا مـارست الاستماع إلى المحادثات التليفـونية.. انى استطيع ان اعرف شـخصيـة المتحدث ونفسيته من صوتـه، ومن اسلوب حـديثه.. أستطيع ان اعـرف الشريف ، والسافل، والمنافق، والصـادق، والقوى، والضـعيف، ان أصوات النـاس كالموسيقى..

وكما تعبر الموسيقى عن مختلف العواطف والأوصاف والشخصيات.. فكذلك الأصوات، وأكثر من ذلك، انى استطيع ان اعرف عمرك بالضبط من صوتك.. وإذا كان المتحدث امرأة استطيع ان اعرف إذا كانت شقراء أم سمراء، عاطفية أم مادية، عبيطة أم ناصحة، انها خبرة طويلة.. وموهبة.. انه فن.. وانا فنان!

واحيانا كثيرة اتدخل فى المحادثات التى استمع اليها.. فإذا كانت المحادثة لا تعجبنى مثلاً، قطعت الخط، وقلت للأستاذ:

— آسف .. الترنك طالبنا !

وإذا كانت المحادثة لطيفة من النوع الذى يعجبنى، أبعدت عنها كل المكالمات الأخرى الخاصة بالدار، وجلست استمع اليها كأنى استمع إلى اغنية لنجاة الصغيرة، إلى ان تنتهى الأغنية نهاية طبيعية..

المهم ..

لقد انتظرت ان يتحدث الأستاذ زكى فى التليفون، وحدث فعلاً.. ولكنه كان لايطلب الا محادثات خاصة بالعمل.. واستطعت خلال هذه المحادثات ان احكم عليه بأنه انسان لبق، يستطيع ان يصل دائما إلى ما يريد، ولكن المحادثات الخاصة بالعمل لاتكفى للحكم على طبيعة الأشخاص ، ان العمل كالبدلة التى ترتديها، تستطيع ان تخفى تحتها جميع القروح والجروح المنطبعة على جسدك، انما المحادثات النسائية هى التى تظهر طبيعة الشخص وحقيقته.. تظهر عاريا.. وقد لا تعلمون ان ٧٥فى المائة من المحادثات التليفونية فى الدور الصحفية، كلها محادثات ليس لها علاقة بالعمل.. كلها محادثات نسائية..

والأستاذ زكى لم يتحدث محادثة نسائية واحدة عن طريقى.. عن طريق السويتش.. لابد انه يستعمل تليفونه الخصوصى فى محادثاته التليفونية.. وأنا أكره التليفونات الخصوصية.. انى اعتبرها تحديا لسلطاتى.. اعتبرها بمثابة اتهام لى فى امانتى!

وتسللت إلى مكتبه يوماً، وعبثت فى آلة التليفون الخصوصى، وخربتها!

وحدث ما توقعته، عاد الأستاذ إلى مكتبه، واتصل بى صارخا:

— تليفونى خسران يا عبده.. شوف لك طريقة.. صلحه حالاً..

قلت وهو لا يرى ابتسامتى:

— حالاً ياأستاذ .. حاتصل با لمصلحة!

وقال الأستاذ :

— طيب اطلب نمرة ١٢٦١٦ .. وادينى الخط على طول!

وطلبت له النمرة .. واستمعت ..

استمعت إلى أجمل صوت نسائى مرَّ بأذنى، فى عمرى كله.. صوت رقيق ناعم خجول ..

لا بد انها فى الثامنة عشرة من عمرها. ولا بد انها سمراء.. ولا بد انها من عائلة كبيرة.. انى أكاد أراها فى صوتها.. عيناها السوداوان يثقلهما الخفر.. وشفتاها المكتنزتان.. ووجنتاها الناضجتان المصهورتان بحرارة شبابها.. وشعرها الأسود الطويل كليل عاشق.. و.. ان صوتها يتسلل من أذنى إلى خيالى.. إلى قلبى..

وسمعته يقول لها :

— حاشوفك امتى ؟

قالت فى خفر :

— ما انت شفتنى امبارح ..

قال وفى صوته تنهيدة :

— امبارح .. يعنى فات اربع وعشرين ساعة.. يعنى ألف وربعمائة وأربعين دقيقة.. يعنى ستة وثمانين ألف وربعميت ثانية.. ولسه ماوحشتكيش!

هذا المنافق .. كيف استطاع ان يحسب كل هذه الأرقام.. لا بد انه حسبها بالورقة والقلم قبل ان يحادثها..

وقالت له فى سذاجة :

— وحشتنى .. وحشتنى قوى !

قال :

— أشوفك بكره .. بس مش فى الشارع .. كفاية اللى حصل .. الناس

كلها عارفاني وكل ما اقعد معاكى فى حتة يشاوروا علينا.. باحس ساعتها كأن الناس كلها واقفة بيني وبينك..

قالت :

— بس انت عارف .. أنا ما اقدرش اروح الشقة!

قال :

— تبقى ما بتحبنيش .. ما عندكيش ثقة فىّ..

قالت مرتبكة :

— بس ..

قال :

— مرفت .. علشان خاطرى .. وحياتى عندك .. ما تخلنيش أحس انك خايفة منى..

قالت فى استسلام:

— طيب بكره الساعة ستة .. بس مش حاتأخر.

وانتهت المحادثة التليفونية..

وسرحت انا .. وجدت نفسى اعيش مع مرفت.. واخذت اتصورها وهى فى الشقة مع الأستاذ زكى.. واحسست بشىء يتململ فى صدرى كأنى أغار عليها.. كأنى أريد انقاذها من الأستاذ..

ولم أنم ليلتها .. وصوتها يملأ اذنى وخيالى..

وعدت فى اليوم التالى ارابط أمام السويتش.. أريد ان اسمع صوتها من جديد.. واتمنى ان يحدث شىء يمنعها من لقاء الأستاذ.. ولكنها لم تتكلم.. ولم أنم أيضاً.. قضيت الليل اتقلب على جنبى.. أريد ان اعرف ماذا جرى فى الشقة.. اريد ان اعرف.. يجب ان اعرف.. وطبعا لم اصلح تليفون الأستاذ الخصوصى..

وتكلمت مرفت فى اليوم التالى.. كانت سعيدة.. فى صوتها رنين كرنين الشخاليل.. كصاجات نجوى فؤاد.. وسمعته يقول لها:

— بعد ما سبتك قعدت افكر فى يوم ما تيجى وتقعدى فى الشقة على طول.. تبقى بيتك.. وبيتى..

قالت فى دلال:

— بس لازم تغير الصورة اللى فى الانتريه.. مش عاجبانى..

قال :

— بكره لما تيجى تشيليها بايدك.. وتعملى فى الشقة اللى انتى عايزاه..

قالت :

— بس توعدنى انك ما تتشاقاش.. انت كنت امبارح شقى قوى..

قال المنافق :

— ده قلبى ..

وحددا موعداً آخر للقاء فى الشقة.. ولم استطع ان اقف فى وجه ثورة الأستاذ على تليفونه الخصوصى الخسران، فأصلحته له.. وحاولت بعد ذلك ان اقاوم..

حاولت ان ابعد عن أذنى وخيالى صوت مرفت، وصورتها وهى مع الأستاذ فى الشقة، ولم استطع، كنت احس بأنى اتستر على جريمة، بأنى اتخلى عن مرفت، اريد ان اعرف ماذا جرى لها، يجب ان اعرف..

وتسللت مرة ثانية، وعبثت فى تليفون الأستاذ الخصوصى، وخربته، وعاد الأستاذ يصيح فى وجهى:

— التليفون خسر تانى يا عبده، شوف لك طريقة!

قلت فى برود :

— اظن العدة لازم تتغير .. حانكتب للمصلحة علشان تركب عدة جديدة..

قال وهو يزفر :

— طيب اطلب ١٢٦١٦ .. وادينى الخط على طول!

وطلبت النمرة بلهفة، وسمعت صوتها يملأ أذنى كأنه الحياة، ولكن، ان فى صوتها رنة غريبة، رنة حزينة خائفة..

ثم سمعتها تقول له :

— أنا خايفة يا زكى !

قال وهو أكثر جرأة عليها :

— قلت لك ما تخفيش، اطمئنى !

قالت :

— يعنى حانتجوز صحيح؟

قال :

— طبعاً ، بس ادينى شهـر واحد انظم فيه نفسى، وحاتـلاقينى عندكم فى البيت!

واحسست ان الجريمة قد وقعت ..

وقال لها بصوت آمر :

— حاشوفك امتى ؟

قالت كأنها جاريته :

— زى ما انت عايز ..

قال فى عظمة :

— بكرة .. نفس الميعاد !

قالت :

— حاضر ..

واحسست ان قلبى ينقبض.. احسست ان مـرفت تبكى بعد ان وضـعت سماعة التليفون..

واحسست برغبة فى البكاء..

ومر شهـر، وأنا فى كل يـوم اسمع صوت مـرفت يزداد ضعفـا وهزالا، حتى يصبح كصوت الشحاذين، فيه استجداء وفيه خزى، ولم يعد الأستاذ يطلبها فى التليفون بـل هى التى تطلبه.. واستطاع ان يجد حجة جـديدة بعد ان انقضى الشهر .. انـه مسافـر إلى الاقليم الشمالى لعمل تحقيق صـحفى.. وانـا اصلح له التليفـون الخصـوصـى يومـاً، وافسـده يومـاً، وقلبى معلق بشفتى مرفت..

وسـافر الأستـاذ فعلاً.. وعاد، ولم يفكر فى ان يطلب مـرفت فى التليفون، انما هى التى طلبتـه، وسـمعت صـوتها.. وكـانت تبكـى.. تبكى فى رعشـة وخوف:

— زكى .. أنا حامل!

وقال الأستاذ كأنه لم يكن ينتظر ان تكبر جريمته إلى هذا الحد:

— إزاى ده .. انتى متأكدة !

قالت من خلال دموعها :

— متأكدة يـا زكى.. قول لى اعمل ايه.. مـا تسبنيش اعمل معروف.. فى عرضك!

— قال :

— ومالك خايفـة كده .. دى حاجة بسيطة.. انـا حاتفق لك مع دكتور.. وكل حاجة تروح لحالها..

وارتفع بكاء مرفت:

— يهون عليك تموتنى يا زكى ..

وقال يقاطعها :

— تموتى ايه .. دى عملية بتتعمل ميت مرة فى اليوم..

وقالت هالعة :

— ماقدرش .. ماقدرش .. انت وعدتنى اننا نتجوز..

قال فى سخط :

— الحق علىّ انـا اللى عرفـت بنات صغيرين .. يـاستى مش معنى اننـا نتجـوز،اننـا نخلف قبل الجواز.. خـلاص.. بكـرة احـدد لك ميعـاد مع الدكتور.. اوريفوار..:

وألقى السماعة، قبلها ..

وكـرهته .احسست بقـوة ضخمة تـدفعنى لأن أقوم واقتلـه، ولكنى لم استطع ان افعل شيئا الا ان أسكت، وابتلع دموعى!

وفى اليوم التالى اتصل بها، وقـال لها ان الدكتور سينتظرهـا فى الساعة الحاديـة عشرة صبـاحـاً، وانها تستطيع ان تعـود إلى البيت فى السـاعـة الـواحدة، دون ان يلحـظ احد من اهلهـا اى شىء.. ثم لم ينتظـر ان يسمع ردها.. أو بكاءها..

ووضع سماعة التليفون، ثم عاد ورفعها وقال لى:

— لما الست دى تضرب تليفون تانى قول لها مش موجود، فاهم.. ولما تصلح التليفون الخصوصى، ابقى اطلب تغيير نمرته عايز نمرة سرية..

قلت فى ضعف، كأنى مرفت .. كأن الأستاذ اعتدى على عرضى انا الآخر:

— حاضر ..

وتكلمت مرفت.. ولم اقل لها ان الأستاذ ليس موجوداً، بل حولت اليه الخط.. وقلت له بسرعة :

— اتفضل كلم ..

وسمعتها تقول له :

— انا خايفة يا زكى .. مش قادرة اروح للدكتور وحدى، لازم تيجى معايا..

وصرخ فى وجهها :

— ايه لعب العيال ده .. انتى عايزة الناس تقول ايه لما يشوفونى داخل عيادة دكتور أمراض نسا..

— انت ما بيهمكش الا نفسك .. ما بتخافش الا على نفسك.. وأنا يا زكى.. انا..

ولم يمهلها.. القى السماعة من يده..

ولكن مرفت لم تلق سماعتها.. ظلت ممسكة بها فى يدها، وهى تبكى.. كأنها تبكى لى..

ولم أطق.. حولت الخط مرة ثانية إلى الأستاذ، لعل بكاء مرفت يشق قلبه الحجر.. وسمعته يصرخ:

— انتى برضه .. احنا مش حانخلص من الدوشة دى.. أنا مش عايز اسمع صوتك بعد كده.. و..

ولم احتمل ثورة السافل، وتدخلت فى الحديث دون ان أدرى، وقلت له كأنى احاول أن انصحه:

— ما يصحش يا أستاذ.. خلى فى قلبك رحمة.. أنت برضه انسان.. و..

وصرخ الأستاذ :

— ايه ده .. مين بيتكلم .. عبده .. وقعتك سوده ..

ثم ترك مكتبه ووجدته داخلاً عليّ فى غرفة السويتش كالمجنون ، وانهال عليّ صفعا وركلا ، وهو يقول :

— أنا حاوديك فى داهية، يا حرامى، تسمع المكالمات.. يا ابن الـ.. يا ابن الـ.. يا ابن الـ..

ولم أرد صفعاته .. اكتفيت بأن أحمى نفسى منها، أحسست ساعتها انى كمرفت.. ليس لى حق عليه.. ولا أستطيع أن آخذ بثأرى منه.. وأخذت أردد وهو يضربنى:

— اتجوزها يا أستاذ.. حرام عليك يا أستاذ، دى بنت غلبانة يا أستاذ.. اتجوزها خلى عندك انسانية..

وهو لا يزال يضربنى..

ولم يكتف الأستاذ.. ذهب الى صاحب الجريدة واتفق معه على طردى من العمل، بعد أن هدد بالاستقالة من رئاسة التحرير، إذا لم أطرد..

وطردت..

وأصبحت عاطلا..

ولم أعد أدرى ما يحدث لمرفت.. وصوتها لا يزال يملأ أذنى وخيالى..

وبعد..

قد تسألوننى لماذا لم أهدد الأستاذ بإفشاء سره ، اذا لم يعدنى الى العمل..

انكم بذلك تسيئون إلىّ.. فإن أهم ما أعتز به هو شرف المهنة.. وشرف المهنة يحتم علينا أن نحتفظ بالأسرار التى نستمع إليها، وألا نستغلها حتى ولو كان من بينها سر جريمة..

حد منكم معاه سيجارة!!

●●●





بلا زواج



انى أعيش بعيدا.. بعيدا جدا.. بلدى صحراء.. خصها الله بالدين والدنيا.. فأنزل وحيه على أرضها، وفجر من رمالها البترول..

وقد لا تهمكم قصتى، بل قد لا تفهمونها، فأنتم لا تروننا إلا من خلال نوافذ السيارات الكاديلاك، ولا تسمعون منا إلا رنين الذهب.. انكم لا ترون الدموع التى تملأ عيوننا ، ولا تسمعون الآهات التى تئز فى صدورنا كأزيز النار!

ورغم ذلك، فاسمعوا قصتى.. لتعرفوا نوعا من العذاب لم يخطر على أرضكم، ولم تتعرض له بنت من بناتكم..

هل سمعتم عن قوم يسمون «بنى خضير»؟

طبعا، لا..

ان «بنى خضير» هم جماعة من المولدين.. أى الذين ليس لهم أصل.. ليس لهم جد يستطيعون أن يسموه، وهم أبناء السلالات المختلفة.. فإذا تزوج عربى من امرأة تركية مثلا ، أو تزوجت عربية من رجل هندى.. فأبناء هؤلاء هم «بنو خضير»..

وعندكم ، اذا لم يعرف الطفل أباه، فقد يعتبر ابن زنا، وقد ينبذه المجتمع، ويخصه بمعاملة شاذة تشعره بوضاعته..

ولكن عندنا، لا يكفى أن يعرف الابن أباه ، بل يجب أن يعرف جده، وجد جده ، الى أن ينتهى نسبه الى قريش ، أو الى قحطان ، الى قبيلة من القبائل المعروفة.. وإلا فهو ضائع ، يعامل معاملة بنى خضير.. فإذا كان رجلا فليس من حقه أن يتزوج من بنات الأسر الكريمة، وإذا كانت بنتا فليس من حقها أن تتزوج من رجال القبائل المعروفة.. ولو حدث أن تزوج رجل خضيرى من فتاة من قبيلة أخرى.. يقتل، وتقتل معه الفتاة.. وإذا حدث أن تزوجت فتاة خضيرية من أحد رجال القبائل، قتلت.. وقتل الرجل أيضا.. قتله أبوه، أو إخوته أو بنو عمومته، تخلصا من عاره..

وربما تكونت سلالة «بنى خضير» منذ أيام الفتوحات الاسلامية، عندما كان الجنود العرب يتزوجون من بنات البلاد التى يفتحونها، ويعودون الى الصحراء ومعهم زوجاتهم، فأرادت القبائل العربية أن تحمى نفسها من هؤلاء الدخلاء، أن تحمى دماءها النقية من دم الأغراب، ففرضت على أبناء هؤلاء الجنود، هذا الذل، ووصمتهم بالعار، وظلوا يعانون الذل والعار الى يومنا هذا..

هل تدهشون وأنتم تقرأون هذا الكلام؟

لا تدهشوا، فقد قلت لكم انكم لا تعرفون بلادى.

وأنا فتاة من بنى خضير..

ولم أكن وأنا صغيرة أستطيع أن أفهم بالضبط معنى أن تكون الفتاة من بنى خضير.. فنحن نعيش حياة عادية كحياة كل الناس، بل نحن نعيش فى مستوى أرقى من مستوى كثير من الناس، فأبى تاجر أفاض الله عليه بالرزق، واستطاع أن يجمع ثروة كبيرة، وأصبحنا نملك ثلاث سيارات، وفيلا أنيقة مكيفة الهواء، وفريجيدير، وراديو، وسينما منزلية، وخدما وثيابا على الحرير، و..و..

وعواطفى كعواطف كل الناس.. أحب أبى وأمى.. وأحب صديقاتى.. وأحب خدمى.. وأحب الفقراء.. كان قلبى دائما مفعما بالحب.. والحب يشيع فى نفسى السعادة..

وأكثر من ذلك.. لقد حرص أبى على تعليمى، فأصبحت أرقى ثقافة من كثير من بنات قريش وقحطان.. وكنت أقرأ كثيرا.. ثم بدأت أكتب.. كتبت قصصا لم يقرأها أحد.. وكتبت خطابات كنت أرسلها الى الكتاب العرب الذين أقرأ لهم..

لم يكن فى حياتى شىء يقنعنى بأنى أقل من غيرى من البنات.. بالعكس.. كل شىء كان يقنعنى بأنى أرقى منهن.. أرقى منهن بعقلى وعاطفتى.. وأجمل منهن.. نعم، أنا جميلة.. ان الدماء المختلطة التى تجرى فى عروقى، قد جمعت أجمل ما فى البلاد العربية، وأفاضت به على..

إلى أن قابلته..

كنت مع أمى فى زيارة عائلته، عندما دخل علينا.. فتى فى العشرين، عيناه واسعتان ينطلق من سوادهما شعاع يخلع القلب، ووجهه أسمر نحيل قوى، وأنفه معقوف أشم، كأنه منقار صقر، ولحيته الصغيرة، وشاربه، انه فتى، يسير فى عباءة من شبابه، فتى الحلم الوردى!

وأسرعت أخفى وجهى بيدى.. لا أدرى لماذا، ربما أردت أن أضع يدى على قلبى، فأخطأت ووضعتها على وجهى، ولمحت عينيه تنظران الى، وشعاعهما يخلع القلب.. ثم رأيت رموشه ترتعشان فوق عينيه كأنها ترتعش بخفقات قلبه..

وقامت أمى واقفة لمقدمه، وقمت معها، وصافحنى، وأحسست بيده تضغط على يدى، كأنه يحاول أن يقبض علىّ ولا يتركنى..

ثم انسحب..

وعدت الى بيتى أحلم به..

وجاءتنى احدى جوارى عائلته تهمس فى أذنى بكلمة الحب، انه يحبنى، وهو يحلم بى، وهو يريدنى.. ويسأل كيف يقابلنى!

ورفضت أن أقابله، مكتفية بأحلامى معه!

وأرسل لى خطابا، كله حب.. كله حب!

وأرسلت له خطابا، أعنف حبا!

وتوالت الخطابات بيننا، أصبحت حياتى كلها خطابا أتلقاه منه، وخطابا أكتبه إليه.. والحلم يرتفع بى.. ويرتفع.. الى السماء.. وأنا فى انتظار أن يخطبنى، ويتزوجنى، وانتقل الى قصره.. الى قصر أحلامى!

ثم لم أعد أطيق أن أحلم وحدى، فأشركت أمى معى.. أطلعتها على سرى.. فإذا بها تصيح فى ذعر:

— دعك منه !

قلت فى دهشة :

— لماذا ؟

قالت :

— انه ليس لك!

قلت :

— انه يحبنى !

قالت :

— انه لن يتزوجك..

قلت :

— من أدراك ؟

ونظرت الى أمى فى اشفاق، كأنها تخاف علىّ من ثقل الحقيقة، وقالت فى صوت رهيب :

- انهم لا يتزوجون من بنى خضير !

وخرست ساهمة. وبدأت حقائق كثيرة تنكشف أمامى.. هذا المجتمع المنعزل الذى نعيش فيه.. هذا الذل والخنوع الذى يبدو على أبى رغم ثرائه.. هذا التعالى الذى تعاملنى به صديقاتى وكنت لا أنتبه إليه لفرط حبى لهن.. وتنبهت الى اننى عندما أذهب وأمى لزيارة عائلة كبيرة.. تبالغ أمى فى احترامها لربة البيت.. و..و..

كثير من المظاهر التى تحيط بى بدأت تنكشف أمام عينى.. ورغم ذلك لم أصدق نفسى.. كان حبى أقوى من الحقيقة التى أعيش فيها.. كان حبى يزودنى بالأمل فى أن حبيبى يستطيع أن يغلب الحقيقة..

وذهبت الى لقائه..

ووضع هو خطة اللقاء فى خطاب أرسله الى.. سأركب سيارتى الى بيت احدى خادمات عائلته.. وأتسلل من باب، وأركب سيارة أخرى تحملنى الى بيت عبد من عبيده.. حيث ينتظرنى..

ولقيته..

وضمنى الى صدره ليسمعنى دقات قلبه.. ومست شفتاه شفتى.. ثم أخذ يروى لى قصة حبه.. ببساطة.. وهدوء..

وقلت له فجأة، كأنى لم أعد أطيق السكوت:

— هل تتزوجنى ؟

ورفع إلىّ عينين دهشتين كأنى أطلب مستحيلاً ، ثم أطرق برأسه، وقال :

— يا ليت..

قلت متهكمة :

— لعل المانع خير..

قال ببساطة :

— سيقتلونني.. ويقتلونك !

قلت :

— هذا أرحم !!

وعـدت الى البيت ثـائرة.. وخيل إلىّ فى ثـورتـى انى أستطيع أن أجبر حبيبى على أن يتـزوجنى، لا لأنى أحبـه فحسب، بل لأمسح العـار عن جماعتى.. لأمحو الأسطورة السوداء التي يعيش فيها بنو خضير..

وعدت أقابله .. قابلته كثيرا.. دائما فى بيت العبد.. وكان دائما عفا شريفا معى.. ولكنه كان دائما يائسا من زواجي.. وصرخت فيه مرة:

— هل تجدنى أقل شرفا من الأعرابيات ؟

قال :

— أكثر منهن شرفا ؟

قلت :

— قبلنى.. هل تجد لقبلتى مذاقا آخر غير مذاق قبلات بناتكم!

قال :

— ارق مذاقا !

قلت :

— اذن لماذا.. لماذا.. لا تتزوجنى!

قال :

— لأن مئات السنين تقف بينى وبينك، وتحكم علينا ألا نتزوج!!

وكـانت أمى تحس بما يجرى لى.. كـانت ترى ثـورتى فى قلبى.. وتـرى الحقد يمـلأ صدرى على المجتمع الذى أعيش فيـه.. وترى السـخط فى عينى كلما نظرت إليها وإلى أبى.. سـاخطة عليهما لأنهما راضيان بوضعهما بين النـاس، ورضيا لى بنفس الـوضـع.. لقـد أصبحت أكره.. أكـره أمى وأبى..

وأكره بلدى .. وأكره كل الناس .. كلى كراهية..

وأخيرا قرر أهلى أن يزوجونى.. زوجا من بنى خضير.. ورضى حبيبى أن يتركنى أتزوج، وسافر الى الخارج لعله ينسانى، وينسى حبى..

ودخلت على زوجى وأنا مصممة على ألا أحمل منه.. انى لا أريد أن تكون لى بنت تعانى ما أعانيه.. لا أريد أن أضع فى الحياة بنتا موصومة بالذل والعار من قبل أن تولد.. لا أريد أن يكون لى بنت من بنى خضير!

وتحملت أنفاس زوجى الكريهة.. تحملت العذاب كله.. ولكنى صممت ألا أحمل منه.. وجن الزوج المسكين.. وصب علىّ جنونه.. ولكنى كنت مصممة.. مهما حدث فلن أضع بنتا أو ابنا من بنى خضير..

وتزوج زوجى علىّ.. ثم.. لم يعد يحتملنى.. فطلقنى!

وعاد حبيبى، وهو لا يزال يحبنى..

عاد يطلب لقائى..

وقابلته فى بيت العبد..

ولا زلت أقابله.. دائما فى بيت العبد..

ولم يعد لقاؤنا عفا ولا شريفا.. وأنا راضية، فهذا كل نصيبى من الحياة.. وأمى تعلم وتسكت. وأبى يعلم ويسكت فهما من بنى خضير!

وحبيبى لا يستطيع أن يقدم لى أكثر من هذا النصيب.. انى لست عبدة فيشترينى ويأوينى.. ولست حرة فيتزوجنى.. أنا من بنى خضير.. وغاية ما يستطيع أن يقدمه لى هو أن يقابلنى فى بيت العبد!!

انى أكتب قصتى..

ثم سأنتحر ..





مدام انچیل

لا أستطيع أن أنسى أبدا «مدام انجيل».. وقد تمر بى شهور طويلة لا أذكرها، ثم فجأة وأنا جالس على مائدة الطعام، أو وأنا أعمل فى الشركة، أو وأنا خارج من السينما، أراها منتصبة فى خيالى بوجهها النحيل المغضن، وجسدها الرفيع الجاف كسيخ من الحديد، ونظراتها النشطة، والشارب الخفيف فوق شفتيها، وشعرات متناثرة فوق ذقنها، ويديها المعروقتين الخشنتين، وذراعيها المكسوتين بالشعر، وشفتاها مقلوبتان دائما كأنى أزمة اشمئزاز، ولغتها العربية المكسرة التى تنطقها بلهجة يونانية..

وقد عاشت مدام انجيل فى صباى.. كانت تأتى إلينا لتحيك ثياب أمى، وتبقى فى البيت طول النهار.. وكانت أمى تحتفى بها احتفاء خاصا، وتعد لها ألوانا مخصوصة من الطعام.. كان أهمها المكرونة الطويلة «الاسباجتى»، واللحمة المشوية، والعيش الفينو.. حتى انى كنت كلما رأيت المكرونة فى البيت استنتجت توا ان مدام انجيل ستتغدى معنا..

وربما كان سر اهتمام أمى بمدام انجيل، انها أحسن وأمهر خياطات حى الظاهر.. ولكن الأرجح ان هذا الاهتمام كان له دافع آخر.. دافع أقوى.. وهو شعور أمى بأن مدام انجيل «خوجاية».. فكانت تعد لها طعام الخواجات.. وتحاول أن تبدو أمامها أكثر تمدينا كالخواجات.. وكنت أرقب أمى وهى تحادث مدام انجيل، وألاحظ انها – أى أمى – تتعمد استعمال الكلمات الأجنبية التى تعرفها.. وكلها كلمات ساذجة قد لا يكون لها دخل فى الحديث.. بونجور.. مرسى.. كورسيه.. بابيون.. كلمات من هذا النوع، كانت أمى تلتقطها من هنا وهناك لتتباهى بها أمام مدام انجيل، كأنها تحاول أن تبدو «خوجاية» مثلها..

فإذا ما تحدثت مدام انجيل، استمعت إليها أمى وهى مبهورة الأنفاس، كأنها تستمع الى حكمة أفلاطون ومنطق سقراط.. كأنها تستقبل مدنية

جـديدة، تفتـح أمامهـا أبوابا مغلقة من أبواب الحياة..

وقـد أحست مدام انجيل بتأثيرهـا على أمى.. وربما أخذت تستغل هـذا التأثير.. وأخذت العلاقـة بينهما تتطور الى نوع من الصداقـة، وبدأت مدام انجيل تأتى لزيـارتنا دون أن تكون أمى فى حاجـة إلى صنع ثياب، وتقضى معنـا دائما طول النهـار.. وأصبح لها نوع من السيطـرة علينا كلنـا، وأمى الطيبـة مستسلمـة لها، مبهـورة بلهجتهـا الأجنبيـة، وأبى الهادىء يكتفى بابتسامته الساخرة ويترك مدام انجيل تفعل بأمى ما تريد..

وكانت مدام انجيل متعالية دائما علينا ، مشمئزة دائما من الطريقة التى نعيش بها، ودائما تصدر أوامـرها ونصائحها كأنها تحاول أن تـرفعنا إلى الدنيـا الراقية التى تعيش فيها، دخلـت مرة فى حجرتى وأنا نـائم، ووجدت النافذة مغلقة، فصاحت بلهجتها اليونانية تصدر أوامرها إلى أمى:

— مش كويس كده يا مـدام.. لازم الشباك يفضل مفتوح علشـان الهوا لازم يخش للولد.. أنا بنتى ماريا لازم تنام والشباك مفتوح..

وكانت أمى تـزهو كلما خاطبتهـا مدام انجيل بلقب «مدام».. كـان هذا اللقب يقنعها بأنها أصبحت «خوجاية» كمدام انجيل..

وسرعان ما فتحت أمى الشباك، وارتعشت أنا من البرد دون أن أستطيع الاعتراض..

وفى مرة رأتنى «مدام انجيل» وأنا آكل الملوخية بالعيش أغمس العيش فى طبق الملوخية ثم أرفعها الى فمى.. فصاحت:

— مش كده يـاخبيبى.. احنا كمان بنعمل ملوخية فى البيت بتـاع احنا.. انما بناكله با لمعقة زى الشوربة.. بنتى ماريا بتاكل الملوخية با لمعقة، لازم تكون زى ماريا..

وشربت الملوخية با لمعقة، وأمى أيضا بدأت تشرب الملوخية با لمعقة..

وفى مرة أخرى نظرت الى مدام انجيل بعينيها القويتين، وقالت:

— الصحة بتاعك مش كويس.. لازم تاخد كينا بسليرى، أنا بندى بنتى ماريـا كل يوم واحد كبـاية كينـا بسليرى.. علشان ييجى كويس خـدودها يبقى زى الدم!..

وأسقتنى أمى الكينا بسليرى رغم صراخي..

ولم أكن قد رأيت ماريا ابنة مدام انجيل، ولم تكن أمى قد رأتها، فهى لم تأت بها الى بيتنا أبدا، رغم إلحاح أمى، كما اننا لم نكن نزور مدام انجيل فى بيتها، وربما اعتقدت أمى أن رؤية ماريا شرف كبير لا نستحقه..

وكنت أتخيل ماريا ، كنت أقضى ساعات طوالا وأنا أرسم لها صورة فى خيالى، كنت أتصورها ذات شعر أصفر طويل، ووجه أبيض مستدير ملىء بالصحة والعافية، وخدودها فى لون الدم، وكنت كلما رأيت صورة لطفلة فى احدى المجلات، أو فى اعلان عن أحد الأدوية القوية، أتخيل ماريا مثلها.

كنت أتخيل ماريا صبية قوية.. قوية جدا. أقوى منى، الى درجة انى كنت أخافها أحيانا.. وكنت أتخيلها مخلوقة لا تمرض ابدا.. لا تصاب بالسعال الديكى، ولا بالحصبة، ولا بالأنفلونزا.. الى آخر الأمراض التى أصبت بها الواحد بعد الآخر.. وكنت أتخيلها نظيفة.. نظيفة جدا.. نظيفة دائما.. لا تلعب ألعابنا.. ولا تأكل بطريقتنا.. ولا تتحدث كما نتحدث.. أتخيلها كملاك لا يعيش على الأرض مثلنا..

وأصبحت ماريا هى محور حياتى..

ان مدام انجيل تنصحنى دائما أن أفعل ما تفعله ماريا..

وأمى تضربنى وتقول لى: ماريا أصغر منك.. وتفعل كيت وكيت وأنت لا تفعل شيئا..

وأصبحت أكره ماريا، وأخافها، وأحسدها، وأحقد عليها، وأتمنى أن أراها..

وفجأة.. انقطعت مدام انجيل عن زيارتنا..

ومضى اسبوع واسبوعان، ثم جاءت لزيارتنا فجأة كما اختفت فجأة.. جاءت ترتدى ثوبا أسود.. وقوامها الذى كان كسيخ الحديد أصبح كعود الخيزران يتلوى وهى تخطو.. وصوتها القوى أصبح صوتا ضعيفا منهارا..

وسألتها أمى:

— مالك يا مدام انجيل..

وبكت مدام انجيل، وقالت:

— ماريا بنتى..

وخبطت أمى على صدرها ، وقالت:

— ما لها ؟

وقالت مدام انجيل ودموعها تنهمر:

— خلاص.. مورتو..

وصرخت أمى:

— ماتت.. ماتت ازاى؟

وقالت مدام انجيل:

— كان عنده أنيميا..

ونظرت إلىّ أمى ثم احتضنتنى كأنها تحمينى من الموت.. ونظرت أنا الى مدام انجيل كأنى لا أصدقها..

وظلت مدام انجيل تبكى وتحدثنا عن ماريا.. ثم أخرجت من حقيبتها صورة لها.. ونظرت أنا وأمى الى الصورة فى لهفة، فإذا بها صورة فتاة عجفاء، صفراء، ممصوصة الوجه!

وبعدها حدث انقلاب فى حياتى..

أصبحت أمى تغلق النافذة عندما أنام.. وسمحت لى بأن آكل الملوخية بلقمات العيش، وأصبحت تنهرنى اذا حاولت أن أشربها بالملعقة، وتصيح فىّ: « يا واد كل بالعيش، خليك تسمن شوية».. وامتنعت عن اعطائى كؤوس الكينا بسلرى.. و..و.. تحررت أمى من سيطرة مدام انجيل..

ولكنى لا زلت أذكرها..

● ● ●





أنا والسماء



اسمي يحيى شاكر ..
وأنا قبطى ..
ومن عـادتى كلما قدمت نفسى لأحـد ، ان أعقب ذكـر اسمى ، بـذكـر ديـانتى.. قبطى.. حتى لا يلتبس عليـه الاسم ، فيعتقـد انى مسلم.. فإن اسمى كما ترى يحتمل الديانتين، ويشترك بين المسلمين والأقباط..

ولم تكن هذه هى عادتى دائما.. منـذ خمس سنوات فقط، لم يكن اسمى يسبب مشكلـة فى حيـاتى، ولم يكن يهمنى أن أحسب بين المسلمين أو بين الأقبـاط، وأكثر من ذلك، لم أكن أشعـر انى قبطى، أو انى لست مسلما، لم يكن الدين مشكلة فى حياتى.. فأنا لست متدينا ، وأبى ليس متدينا ، وليس معنى ذلك انى وأبى منحلان أو ملحدان، ولكننـا فقط لا نتمسك بالطقوس الدينية ولا نحسب لها حسابا فى برنـامجنا اليومى ، وأمى وحدها هى التى تذهب الى الكنيسة وتحتفل بالمناسبات الدينية، ولكن ذهابها إلى الكنيسة لم يكن يثير فى عقلى معنى دينيا.. كنت أحس بها وهى ذاهبة إلى الكنيسة كأنها ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتها مجرد احساس بأنها خارجة من البيت.. كما كان احتفالها بـالمناسبات الدينيـة لا يثير فى الاحساس بالمناسبـة نفسها.. كان كل مـا اهتم به هو ما يقـدم فى هذه المناسبـات من الكعك والحلوى.. ورغم ذلك فإنى..

ولأروى لك القصة من أولها :

لقد كنت فى التـاسعة عشرة من عمرى عندما التقيـت بسعاد لأول مرة.. كنت واقفا فى الطابـور أمام شباك سينما مترو.. أتقدم نحـو الشباك خطوة خطـوة، وعندمـا لم يعد أمـامى سـوى شخص واحد، اقتربت منى سعـاد، وقالت فى حياء وهى تبتسم ابتسامة كقطعة السكر:

— تسمح تقطع لى تذكرة معاك..

والتقيت بعينيهـا الضـاحكتين، ووجههـا الأسمر، وشعـرهـا الأسـود

المنسدل على كتفيها كوشاح من الليل.. وأبديت استعدادى مباشرة لأشترى لها تذكرتها.. ولكنها كانت تريد ثلاث تذاكر.. كان معها صديقتان..

وطبعا.. حجزت مقاعدهن، وحجزت مقعدى بجانبهن، وكانت حفلة الساعة الثالثة..

وتركتهن يدخلن دار السينما قبلى، ثم لحقت بهن، ووجدتها جالسة بين صديقتيها، ونظرت إليها نظرة آسفة ثم جلست بجانب صديقتها.. ولكن البنات ما لبثن أن تهامسن، ثم انتقلت سعاد وجلست بجانبى.. وقلت وأنا أحس بقلبى يقفز إلى حلقى:

— الكراسى كويسة؟

قالت :

— كويسة قوى.. مرسى.. ثم بدأنا نتحادث..

ولا أدرى كيف اتصل بيننا الحديث سهلا صافيا ، ليس فيه افتعال ولا تصنع.. كأننا كنا نختزن كل هذا الكلام ليقوله كل منا للآخر يوم لقائنا..

وانتهى الفيلم وقد شغلنا عنه الحديث..

وخرجنا على موعد..

ولا أطيل عليك.. لقد أحببتها.. وأحبتنى.. وفى خلال ثلاثة أشهر، كانت حياتى كلها تدور حول هذا الحب.. أعف وأقوى حب يمكن أن يخطر على قلب شاب فى مثل عمرى..

وعرفت عنى كل شىء.. عرفت انى نلت شهادة التوجيهية وأن أبى يملك محلا كبيرا لبيع الأقمشة فى الموسكى.. وأنى أشتغل معه.. وأنى فى خلال عامين سأنشىء محلا آخر أديره بنفسى فى شارع ٢٦ يوليو.. و..و..

لقد عرفت عنى كل شىء فى خلال هذه الشهور الثلاثة.. كل شىء.. أو هكذا اعتقدت..

الى أن كان يوم.. يوم أحد..

والتقينا كعادتنا عند أول كوبرى قصر النيل.. وبدأنا نسير على الكوبرى

لنجلس ـ كعادتنا أيضا ـ فى الكازينو المقام هنا على الضفة الأخرى.. وقلت لها خلال حديثنا.. وبكل بساطة:

— النهاردة ماما راحت الصبح الكنيسة.. ورجعت مصممة انها تجوزنى..و..

وقاطعتنى وقالت وهى تنظر إلىّ فى بلاهة:

— مامتك راحت الكنيسة؟

قلت وأنا أنظر إليها فى دهشة:

— أيوه !..

وارتعشت ابتسامة غريبة على شفتيها، وقالت:

— هى مامتك مسيحية؟

قالتها كأنها تكذب نفسها، وأجبتها ببراءة:

— طبعا..

واتسعت عيناها، وازدادت ارتعاشة الابتسامة فوق شفتيها، وعادت تقول:

— وأنت ، انت مسيحى؟..

ووجمت، شىء فى داخلى أشعرنى بأنى مقبل على اكتشاف خطير، مخيف، وقلت وأنا أنظر إليها كأنى أبادلها بلاهتها:

— أيوه!

وسكتت، واتسعت ابتسامتها، الابتسامة المرتعشة الفارغة، ثم ضحكت، ضحكة خافتة عصبية، وسرنا صامتين، وأنا واجم، وهى واجمة.. عقلى مشلول، لا أستطيع أن أتبين بالضبط ما حدث.. شىء كبير حدث، ولكنى لا أستطيع أن أتبينه، ولا أستطيع أن أسألها عنه، وعشرات الكلمات تتزاحم فوق لسانى، بينها كلمات اعتذار، وكلمات توسل، وكلمات ثورة، وكلمات غضب، ولكنى لا أستطيع أن أنطق إحداها!

ووصلنا الى الكازينو، وجلسنا الى المائدة التي اعتدنا أن نجلس عليها، وحاولنا أن نتكلم، كلاما عاديا، كان كل منا يحاول أن يتجاهل الشىء الخطير الذى حدث، ولكننا لم نستطع أن نستمر فى الكلام، لم نستطع

حتى ان ينظر أحدنا الى الآخر، ومرت بيننا فترة صمت طويلة، وكل منا تائه العينين، يطل بهما فى النيل، كأنـــه يبحث عن شـــىء ضـــاع منــــه، ثم فجأة انهمرت الدموع من عينيها.. بكت، ورأيت دمــوعها، ورأيتها، تخرج منديلها الصغير لتخفى به دموعها، ثم قالت وهى تحاول أن تكتم نشيجها:

— أنا لازم أروح دلوقت..

قلت فى صوت خافت ضعيف:

— ليه ؟..

قالت :

— كده ، لازم أروح!

قلت وأنا أنظر إليها فى توسل :

— مش أحسن نقعد نتكلم !

قالت فى يأس :

— لأ ، فيش لازمة، أروح أحسن، بدل ما نعذب بعض!

ثم قــامت واقفة! وأدارت لى ظهـرهـا، وابتعــدت فى خطوات سريعــة، وأنا لا زلت جالسا فى مكانى، لا أستطيع أن أتحرك، أنظر خلفها كأنى أنظر الى قلبى يطير من صدرى!..

وبدأت ساعتها أفهم !

لقــد كــانت تعتقــد أنى مسلــم، اختلط عليهــا اسمى، وأحبتنى على انى مسلم.. وأنا، فى كل ما ذكرته لها عن نفسى، نسيت أن أذكر لها انى قبطى.. لا، لم أنس، ولكن لم يخطــر ببــالى أن أقــول لها إذا كنت قبطيــا أو مسلما، لم يكن هذا شيئا مهما بالنسبــة لى، لم تكن ديانتى مشكلة فى حياتى حتى أذكـــرهـــا لها ، لم أكـن أشعـــر انـــى قبطى أو انى لست مسلما ، كـــان كل ما أشعر به هو انى أحبها ، وهى تحبنى!

ولكن أفقت..

عرفت انى قبطى!..

وعــرفت ان اسمى قــد يخدع بعض النـــاس، وأنها خديعــة فعــلا.. لأنى

لا أملك أن أحـدد كل تصرفـاتـي، ولكن السماء هي التي تحدد لى كثيرا من شئوني..

وأشد ما آلمنى ساعتها هو انى اكتشفت انى خدعت سعاد، دون قصد.. وخشيت أن تكون قد اعتقدت هى أيضا انى خدعتها..

وأذكر ليلتهـا انى حملت عذابى وذهبت لأسهـر فى كاباريـه «البيروكيه» وجلست مع شلة من أصـدقائى، أسكر، وجاءت احدى الـراقصات لتجلس بيننا ، فوقفت مترنحا أقدم لها نفسى:

— يحيى شاكر..

ثم بسرعة قلت لها:

— قبطى..

وقبّلتنى الراقصة على خدى وهى تقول:

— ياختى عليه..

ومن يومها.. تعودت كلما تعرفت بصـديق جديد، أو بفتاة، أو بشلة.. أن أنتهز أقرب منـاسبة لأعلن لهم انى قبطى حتى لا يلتبس عليهم الاسم، حتى أستطيع بعد ذلك أن أعيش بوضوح..

●●●

نسيت أن أقول لك..

لقد أرسلت لى سعـاد بعدها خطـابا طويـلا.. لم تلمنى فيه، ولم تتهمنى بخداعهـا.. قالت لى انها تحبنى.. ولكنهـا تفضل أن تتحمل عذاب حـرمانها من حبها، عن أن نتعرض كلانا لعذاب أكبر..

ورغم ذلك..

فلا زلت كلما ذكرت اسمى ، أذكر معه ديانتى.. حتى أعيش بوضوح..

●●●



لا أملك شيئاً



أخيرا ..

أخيرا عـــرفت سر عـــذابـــى، عـــرفت لماذا قضيت عمـرى كله شـاردة العقل مـوجوعـة القلب، أبدو أحيـانا كأنى مجنونة، وأحيـانا أبـــدو كأنى أعقل بنت فى القـــاهـــرة، وأسأل نفسى فى فترات جنـونى: لماذا جننت؟. وأسأل نفســـــى فى فترات تعقلى: لماذا أنا عاقلة؟. فلا أدرى سببا لجنونى ولا لتعقلى!

ولم يكن فى حياتى شىء أستطيع أن أشكو منه!

نشأت فى عائلة ثرية، تحبنى وتـدللنى، وأبى وأمى مطلقان، طلقا وأنا فى الثانيـة من عمرى ، وتزوج أبى من أخرى،وتـزوجت أمى من آخر، ولكننى لم أكن أشكو مـن شىء، فامرأة أبى تحبنـى، وتعاملنى برفـق وحنان، بل انها أحيانا تغالى فى تدليلى، كأنى ابنتها، أكثر من ابنتها، ربما لأنها لم ترزق بأولاد.. وكـذلـك زوج أمى، إنـه يحنـو على دائما، ويبرر دائما تصرفـــاتى، ويقف بجانبـى فى كل مرة اختلف فيها مع أمـى، ولم يحدث أبدا أن اختلفت مع زوجة أبى، أو زوج أمى.. لم ينهرنى أحدهما مرة، أو يسبب خدشا فى نفسيتى!

وكان لى فى كل بيت حجـرة خاصة بـى، فى بيت أمى حجرة، وفى بيت أبى حجرة، وكنت أتنقل بين البيتين كما أشاء، دون أن يعترض أبى أو تعترض أمى.

ولكنى لم أكن أستريح فى أحد البيتين..

نفسيتى لم تكن تستريح..

كنت أحس دائما أنى أريـد أن أهـرب.. لا أكاد أبقى فى بيت أيـامـا حتى يضيق قلبى، فأهـرب إلى البيت الآخر.. ولا أكـاد أبقى فى البيت الآخر أيـاما حتى أعود إلى البيت الأول..

ونفس الاحساس كان ينتابنى كلما جلست مع أبى وأمى!

كنت لا أكاد أجلس مع أبى، حتى أحس بأنى مشتاقة إلى أمى.. بل أحس أنى أحب أمى أكثـر من أبى.. وأذهب إلى أمى، ولا أكاد أجلس معهـا.. حتى يداهمنى شوق إلى أبى، وأحس أنى أحبه أكثر .. أكثر من أمى..

وحتى اقتناعي بشخصية وحياة كل منهما.

كنت أحيانا أقتنع بأن شخصية أبى هى شخصية الرجل المثالى، والحياة التى يعيشها هى الحياة التى أريدها.. الحياة المثالية.. ثم لا ألبث أن يتحول اقتناعى ناحية أمى رغم الخلاف الكبير بين شخصيتها وحياتها وشخصية وحياة أبى..

ومع الأيام كبرت هذه الأحاسيس فى نفسى، وأصبحت أحس كأنى أريد أن أهرب من البيتين، وأهرب من الشخصيتين أصبحت لا أستريح إلا بعيدا عن البيتين، وعن أبى وأمى..

وأصبحت أهرب فعلا..

أهرب الى أين؟

الى الشبان..

كنت لا أكاد ألتقى بشاب حتى أهرب معه فى لقاء يدوم ساعة أو ساعتين، أستريح فيهما.. ثم أعود الى البيت ـ أحد البيتين ـ لأكتشف أنى لا أحب هذا الشاب.. وأن دمه ثقيل، وأشعر كأنى أشمئز من نفسى، ومنه.. ولكنى لا ألبث أن أعود فأهرب مع شاب آخر فى لقاء آخر..

وتعدد الشبان .. وتعدد لقائى بهم.. وأصبحت أكثر جرأة.. أكثر جنونا.. وأذكر انى كنت فى السادسة عشرة من عمرى، عندما قررت أن أخرج للقاء شاب فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. هربت من البيت ـ بيت أمى ـ والكل نيام، وعدت قبل أن يصحو أحد.. عدت وشعور غريب من الراحة يملأنى لا لأنى التقيت بشاب أحبه ـ فلم أكن أحبه ـ ولكن فقط لأنى هربت من البيت..

وفى هذه الأثناء بدأت تنتابنى رغبة خبيثة فى مضايقة زوجة أبى، وزوج أمى.. كنت أفتعل المشاحنات معهما، وأثور فى وجهيهما، وأنتقى فى نقاشى كلمات ثقيلة تجرحهما، بل إنى فى مرات كثيرة كنت أستطيع أن أجعل زوجة أبى تبكى، وأن أجعل زوج أمى يفقد أعصابه، ثم بدأت أثور حتى على أبى وأمى، وأجلب عليهما النكد والهم..

وكنت أعلم أنى أنا البادئة فى هذه المشاحنات..

أنا المخطئة..

لماذا؟

لماذا أفتعل المشاحنات مع ناس أعلم أنهم يحبوننى؟! لماذا أعكر حياة

أبى وأمى وهما لا يبخلان علىّ بشىء؟!
ولا أستطيع أن أجد الجواب..
واحتملنى الجميع..
احتملونى، وكلما ازدادوا احتمالا، ازددت وقاحة وجرأة عليهم.
ثم..
فجأة أيضا، قررت أن أتزوج..
أصبح كل همى أن أتزوج..
ولم يكن من الصعب على أن أتــزوج ولكنى لم أكن أفكــر فى الـزواج.. بالعكس، كان تفكيرى منصبا على الاحتفاظ بحريتى.
ماذا حدث حتى تغير تفكيرى فجأة؟
لا أدرى..
انما تزوجت..
وكان زوجى شابا رائعا يعيش مع أمــه بعد أن توفى والده ويقيم معها فى فيللا بناها حديثا فى المعادى.. وانتقلت لأعيش معهما..
وقد قلت أن زوجى كان رائعا.
وأمه أيضا كانت رائعة..
لقد أحبتنى أمــه.. ودللتنى.. لم تدع يوما يمر دون أن تشعـرنى بحبها، ودون أن تقيم لى عرشا من اهتمامها وحنانها..
وأحببت زوجى..
وأحببت أمه..
نعم، انى واثقة من أنى أحببتهما..
ولكن..
ما كادت تمر شهـور قليلة، حتى بدأت نوبات الـرغبة فى الهرب تنتابنى من جديد..
وقاومت!
قاومت كثيرا!
ولكنى لم أستطع أن استمر فى المقــاومة طـويلا ، فبـدأت أهرب من بيت زوجى الى بيت أبى لأقضى فيــه أياما ، ثم أهرب منــه الى بيت أمى لأقضى فيه أياما أخرى!

و..

وزوجى يطيعنـى، يتركنى أذهب الى بيت أبـى أو بيت أمى متـى شئت وأعود اليه متى شئت!

ولكنى أحسست أنى لن أكتفى بـالهرب الى أمى وأبى.. بدأت أحس أنى سأعود الى عادة الهرب مع الشبان!

بدأت أفكر فى خيانة زوجى!

لا!

مستحيل !

لن أرتكب هذه الجريمة !

ولم أرتكبها فعـلا ، ولكن المقاومـة العنيفة التى بـذلتها، والكبت الكبير الـذى عـانيته، جعلنـى امرأة عصبيـة، شبـه مجنـونـة، فأصبحت أختلق المشاحنات مع زوجى، ومع أمه، وأثور فى وجهيهما، وأهينهما، وأجرحهما!

زوجى الذى أحبه..

وأمه التى أحبها..

ثم ..

لم أعد أطيق..

كان يجب أن أهرب..

وأخذت أسلم الطرق للهرب..

الطلاق !

نعم !

طلقت زوجى الذى أحبه..

وعدت أعيش فى بيت أبى أحيانا وفى بيت أمى أحيانا !

وأصبحت أنطلق انطلاقات عنيفة..

أصبحت تمر علىّ شهور يتعدد خلالها عشـاقى.. عشاق لا يربطنى بهم حب، ولكن يربطنى بهم نوع من الهوس والانحلال الذى يدفعنى اليهم!

ثم تمر شهـور أخـرى أهدأ فيهـا ، وأحفظ نفسى من العشـاق، وأبـدو عاقلة، عاقلة جدا.. وترفع أمى كفيها الى السماء وتحمد الله..

ولكنى لا ألبث أن أعود..

أعود الى جنون الهرب..

وأخيرا !

وأنا فى الثلاثين من عمرى، وفى فترة من فترات هدوئى، اكتشفت عقدتى..

اكتشفت سر عذابى!

أتدرى ما هو السر؟

السر أنى طول حياتى لم أملك شيئا..

لم أملك أبى فهو ملك لزوجته !

ولم أملك أمى، فهى ملك لزوجها !

ولم أملك زوجى ، فهو ملك لأمه !

والبيوت التى عشت فيها، ليس بينها بيت أملكه!

بيت أبى ليس ملكى، ملك زوجته!

وبيت أمى ليس ملكى، ملك زوجها!

وبيت زوجى ليس ملكى، ملك أمه !

وقد كنت طول حياتى غريبة فى هذه البيوت.. كنت دائما ضيفة.. والانسان لا يستطيع أن يحتمل الشعور بالضيافة طول عمره، إنما يهرب منه الى الاحساس بالملكية.. حتى لو كانت ملكية ركن منزو صغير، لا يقاس بالقصر الذى يستضيفه..

ولذلك كنت أهرب..

كنت أهرب باحثة عن شىء أملكه..

وهذا هو سرى..

هذه هى عقدتى..

واسترحت عندما اكتشفت سرى..

عرفت طريقى..

انى سأتزوج مرة ثانية..

وسيكون لى بيت.. بيت لى وحدى ومعى زوجى..

بيت أملكه..

وسألد..

سيكون لى ابنة.. انى أريدها ابنة..

ان أعلى مراتب الملكية هى الأولاد.. وستكون ابنتى هى الدنيا التى سأملكها..



تاتا



عزيزى احسان :

انى أعرف أنـك غاضب منى منـذ أن عدلت عن خطبة انعام، وتركتها، وحطمت قلبها..

لا تحاول أن تنكر غضبك.. فانى لم أعد أرى على وجهك هــذه الابتســامــة الكبيرة التى كنت تستقبلنى بها.. ولم أعد أحس بحـرارة يدك وانت تصافحنى. ولم أعـد أسمعك تحدثنى كعادتك عن أحلامك الكبيرة، وتعدنى بأن تجبرتى على الاستقـالـة من الحكومـة لأتفـرغ للعمل معك فى دار روز اليوسف!!

ولك حق فى أن تغضب منى، وتتهمنى بالنذالة والسفـالة.. كل ما أرجوه أن تسمع قصتى، لعل فى قصتى ما يخفـف من غضبك ومن قسوة اتهامك.. قصتى التى اخفيتها عنك منـذ عرفتك.. قصة حياتى كلهـا.. وستعرف بعد أن تسمع قصتى، انى عنـدما حطمت قلـب انعام، حطمت قلبى مع قلبهـا.. وان العذاب الذى تعيش فيه انعام هذه الأيام، لا يقاس بالعذاب الذى عشت فيه طول عمرى..

لقد نشأت ـ كما تعـرف ـ فى مدينة المنصـورة.. وكان أبى شيخا وقورا يعمل إمـاماً لجامع هنـاك، ويعمل فى الوقت نفســه محاميا شرعيا.. وكـانت أمى امـرأة صغيرة السن. تصغـر أبى بأكثـر من عشرين عـامـا.. وكـانت مدللـة، عنيدة، طاغيـة الشخصية.. استطاعت أن تمحـو شخصية أبى من جانبها ، فأصبح الرجل فى بيته ضعيفا، ذليلا، ليست له كلمة ولا رأى..

وكنا ثـلاثة إخوة.. ولدان، وبنت جميلـة رقيقة هزيلة.. وكـانت أمى قد أطلقت علىّ أنا وأخـى، أسماء بنات.. أسمتنى «تاتـا» رغم أن اسمى المسجل فى شهـادة الميـلاد هـو: تـوفيق.. وأسمت أخى «مـديحة»، رغم أن اسمـه: ممدوح.. وربما كان السبب فى تسميتنا بأسماء البنات هو منع الحسد عنا، كما كانت تعتقد بعض الأمهات، ولكنى أعتقد أن السبب الأول هو دلال أمى وميوعتها، وفـرض عقليتها القاصرة علينا.. وقد ظلت أسماء البنـات عالقة

بنا طول مدة اقامتنا فى المنصورة.. وحتى بعد أن كبرت وأصبحت طالبا فى كلية الحقوق.. ترك اسم «تاتا» فى نفسى شعورا دائما بالنقص.. لقد تعودت عليه.. لم أكن أغضب أو أثور عندما ينادينى أحد أصدقائى باسم «تاتا» ولكن رنين اللفظ كان يسقط فى صدرى، ويترك صدى مؤلما كأنه حد سكين يقطع فى لحمى..

ومنذ وعيت الحياة وأنا أرقب تصرفات أمى، وأقارنها بتصرفات بقية الأمهات.. كانت تتزين زينة فاقعة.. تلطخ وجهها بكثير من الأبيض والأحمر والأسود.. وتقف فى شرفة البيت وهى فى ثوب فاقع اللون يكشف عن ذراعيها السمينتين، وصدرها المنفوخ، وساقيها المكتنزتين باللحم والشحم.. ثم تكثر من الخروج من البيت دون أن يعلم أحد أين تذهب، ودون أن يعترض أبى المسكين.. ولم أكن وأنا فى هذه السن، أستطيع أن أفسر هذه التصرفات وأفهمها، ولكنى فقط كنت أقارنها بتصرفات أمهات أصدقائى.. وأشعر بالضيق.. ثم لا استطيع شيئا إلا أن أذهب وأجلس صامتا بجانب أبى، واستمع اليه وهو يتلو القرآن.

وكبرت.. وأصبحت شابا.. وبدأت أفهم تصرفات أمى.. وبدأت التقط الهمسات التى تدور حولها.. عرفت أن أمى ليست امرأة فاضلة .. ولكنى لم أستطع أن أفعل شيئا.. كل ما كنت أفعله هو أن أهرب من أصدقائى، ومن الهمسات، وأختفى فى الجامع الذى يؤم أبى المصلين فيه.. وأجلس على الأرض وأسند ظهرى الى الحائط.. وأشعر بالهدوء..

وكبرت أكثر.. وكل ما أفعله فى الحياة هو أن أنجح فى كل امتحان بدرجة ممتاز.. كنت أقبل على المذاكرة بنهم.. كأنى أهرب وأخفى نفسى بين صفحات الكتب والكراريس.. أهرب من صورة أمى، ومن تصرفاتها..

ثم أصيب أبى بالشلل.. رقد فى البيت جثة هامدة لا يبدو عليها من آثار الحياة الا ترنم خافت بآيات القرآن..

وازدادت أمى فجورا..

كانت تترك أبى المريض، وتخرج من البيت، ولا تعود الا فى الليل.. وأحيانا تغيب أياما وليالى.. وأجلس أنا وأختى الهزيلة حول فراش أبى.. أختى تناوله الدواء، وأنا أقرأ له فى القرآن..

ثم فوجئنا يوما بزيارة عمى الصغير.. انه أخ غير شقيق لأبى وهو يصغر أبى كثيرا.. شاب لا يتعدى الثلاثين من عمره.. أصغر من أمى أيضا.. ولم يكن من عادته أن يزورنا حتى فى المناسبات التى تستدعى الزيارة.. كان دائما بعيدا عنا وعن بيتنا..

وعرفنا أنه جاء بناء على دعوة أمى..

وأصبح يجىء كل يوم.. ولم يعد يكلف نفسه أن يدخل الى غرفة أبى ليطل عليه.. بل كان يجلس مع أمى.. وأحيانا يجلسان فى شرفة البيت.. حتى ساعة متأخرة من الليل.. الى أن ننام ـ أنا وإخوتى ــ أو نتظاهر بالنوم..

ثم أصبح عمى يجىء ومعه أصدقاؤه ويجلسون فى الشرفة، يشربون البيرة، وأمى معهم، والأصباغ تلطخ وجهها، وثوبها الفاقع يكشف عن ذراعيها السمينتين.. وجثة أبى فى الغرفة المجاورة لا تستطيع أن تتحرك، ولا أن تغضب.. فقط تتنفس آيات القرآن..

وأصبح الهمس الذى يدور فى البلدة صراخا.. والأولاد يتجمعون تحت شرفة بيتنا ويقذفون أمى وضيوفها الذين يشربون البيرة، بالشتائم، وأحيانا بالطوب.. وأسمع أمى وأنا جالس بجانب جثة أبى، وهى ترد شتائمهم ، وتدلق عليهم الماء القذر .. وأقضى الليل وأنا أفكر فى وقف هذه الفضائح التى تعيش فى بيتنا .. لماذا لا أجبر أمى على أن تحترم نفسها وتحترم البيت.. لماذا لا أضربها.. لماذا لا أطرد هؤلاء الذين يشربون البيرة..

نعم سأفعل.. سأفعل.. ولكنى ما أكاد ألتقى بوجه أمى فى الصباح حتى تذوب أحلامى، وتذوب قواى وتذوب شخصيتى..

ووالدى أصبح عظاما.

وأختى تزداد هزالا..

وأخى «مديحة» انقطع عن المدرسة وتشرد..

ونلت التوجيهية، وهربت الى القاهرة لألتحق بالجامعة.. واعتقدت أنى سأستريح.. سأنسى.. سأستعيد شخصيتى.. ولكن لا .. ان كل شىء

راقد فى نفسى.. وجه أمى ملطخ بالأصباغ، وذراعاها السمينتان.. وعمى الشاب.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبى.. وأختى الهزيلة.. وأخى «مديحة» وشخصيتى الضعيفة..

وكان علىّ أن أعود الى بيتنا فى الأجازة.. ووجدت الحال كما هو.. وازداد أصدقائى جرأة، فبدأوا يطلبون منى أن أضع حدا لمجون أمى وعهرها.. وكنت أقول لهم.. انتظروا الى أن أنال الليسانس، حتى لا تحرمنى أمى من المال.. وهى المسيطرة على كل ما نملك.. فلا أستطيع أن أتم تعليمى..

ولم يكن هذا صحيحا.. فلم يكن حرصى على الاستمرار فى العلم هو سبب سكوتى على تصرفات أمى.. ولكنه ضعفى.. وأنا اسمى «تاتا» وليس توفيق.. لو كان اسمى توفيق، فربما استطعت أن أوقف أمى عند حدها.. ولكن اسمى تاتا.. تاتا ، أمام أمى.. وتاتا، أمام أصدقائى.. وتاتا ، أمام نفسى..

ثم مات أبى..

ولم تنقض ثلاثة أيام على موته.. حتى باعت أمى البيت الذى نملكه فى المنصورة.. ثم دعتنى أنا وأخى وأختى ، وأعطت لكل منا نصيبه فى ثمن البيت.. كان نصيبى ألفاً وثمانمائة جنيه وكذلك أخى.. وأختى النصف..

ثم اختفت أمى.. هربت مع عمى ليقيما فى الاسكندرية.. وتركتنا وحدنا..

واختفى أخى فى عالم التشرد.. وأخذت أختى لتقيم معى فى القاهرة حتى أتم دراستى.. ولكن أختى ما لبثت أن مرضت بالسل.. وماتت.. وعشت وحيدا.. معذبا.. منطويا.. فى صدرى صور كالأشباح تملأه بالصراخ.. وجه أمى الملطخ بالأصباغ.. وذراعاها السمينتان.. وعمى.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبى التى تتنفس آيات القرآن.. وأختى الصفراء التى أكلها السل.. و.. تاتا..

ونلت الليسانس بدرجة ممتاز..

واستطعت أن أحصل على وظيفة فى النيابة..

ثم..

ثم قابلت انعام..

أحببتها.. وأحبتنى .. لم يداخلنى الشك فى حبها أبدا..

وكنت أعلم أنها فاضلة.. أفضل البنات.. وأكثرهن اتزانا..

كان فيها كل ما أريده.. وجهها الهادىء الذى لا تمسه الأصباغ وثيابها المحتشمة التى تغطى صدرها، وذراعيها.. وحديثها الرائق كقطرات الندى.. ولكن.. ولكنى كنت كلما نظرت إليها تذكرت أمى.. تذكرت الوجه الملطخ بالأصباغ، والذراع السمينة.. وعمى.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبى.. وتاتا..

ولم تكن تعرف أن اسمى فى المنصورة هو «تاتا».. كانت تنادينى دائما بتوفيق.. ولكنها كلما همت أن تفتح شفتيها لتنادينى، خيل إلىّ أنها ستنادى «تاتا».. لا أدرى لماذا.. ولكن هذا ما كان يحدث لى .. وقد حاولت أن أقاومه.. حاولت أن أنسى أمى وكل ما أحاط بحياتى.. وحاولت أن أثبت لنفسى أنى أقوى شخصية من أنعام.. فكنت أفتعل معارضتى لآرائها وتصرفاتها.. ولكنها كانت تنتصر على دائما دون تعمد.. لأن آراءها وتصرفاتها كانت دائما صحيحة ، ولكنى كنت أحس أنها انتصرت على لأن شخصيتها أقوى من شخصيتى.. كما كانت شخصية أمى أقوى من شخصية أبى..

وحاولت أكثر من ذلك..

خطبتها..

خطبتها لأتغلب على احساسى بالنقص.. لأزداد ارتباطا بها.. لأسد فى وجهى طريق التردد والخوف..

ولكن، لا أمل..

انى لا أزال أرى فيها وجه أمى.. وأرى فى نفسى شخصية أبى..

ثم لم أعد استطيع..

فسخت الخطبة..

وأنا أعلم أنه ليس ذنب أنعام، فلو كانت أية فتاة أخرى لفسخت خطبتها.. ولكنه ليس ذنبى أيضا..

أرجوك..

لا تغضب منى..



المجنونة



عزيزى احسان :

هل الله رجل؟

أستغفر الله ان كان فى سؤالى كفر.. فانى احبه.. أحب الله.. انه سندى، وكل أملى.. لم يعد لى سند، ولا أمل غيره..

ورغم ذلك فانى لا أستطيع أن أكف عن التساؤل: هل الله رجل؟

انى اكتب اليك من بعيد..

• بلادى كانت صحراء.. ذهبها رمال وخيرها فى شهامة أهلها وزهدهم وايمانهم.. ليس فيها من زهور الا بناتها.. وليس فيها ما يدلك على الطريق الا القمر والنجوم.. وليس فيها ما يبدد وحشتها سوى همسات الحب..

وفجأة أفاض الله على بلادى بخير جديد..

خير أسود.. اسمه البترول!

واختص الله بهذا الخير، الرجال وحدهم.. وترك البنات يعشن فى صحراء.. بلا بترول!

الرجال وحدهم هم الذين تغير حالهم.. الذهب يجرى فى أيديهم.. ذهب ليس فى لون رمال الصحراء.. انه فى لون الويسكى، وفى لون شعور الشقراوات من البنات الأجنبيات، وفى لون الوجوه المنهوكة التى أنهكها الافراط.. ونحن.. نحن البنات. بقينا على حالنا.. تغير الثوب البدوى الذى نرتديه وأصبح ثوبا من طراز «الشوال»، و«الترابيز»، و«البرنسيس» وعرفنا «الجيبون» و«السوتيان»، و«الجيبور» و.. ما عدا هذا لم يتغير منا شىء.. اننا لا زلنا نعيش خلف الحجاب.. وخلف الجدران.. ولا زالت تقاليد الصحراء تحكمنا.. ولا زال الأب والأخ وابن العم، يقيمون حولنا قضبانا من الحديد.. من أنانية الرجل، وقسوته، وبدائيته..

وقد كانت هذه التقاليد محتملة يوم كانت تحكم الرجال والنساء على السواء.. لقد كنا وسط هذه التقاليد ـ رغم كل ما فيها من أنانية وبدائية ـ

نعرف طريقنا الى الرجل، وكان الرجل يعرف طريقه الينا.. كنا كلنا فى سجن واحد.. ولكن الرجل صنع من البترول مفتاحا للسجن، وخرج منه وحده، وتركنا فيه، وأغلق الباب وراءه، واحتفظ بالمفتاح فى جيبه.. أصبحنا نحن وحدنا فى السجن، والرجل طليقا حرا.. فلم نعد نعرف طريقنا اليه، ولم يعد يعرف طريقه الينا..

وأنا لم أولد وكل هذه الخواطر فى رأسى.. لا.. لم أكن أشعر بثقل التقاليد.. ولم أكن أشعر بأنى فى حاجة الى المطالبة بحق.. كانت حياتى كلها حبا..

أحببت ابن عمى..

وربما أحببته يوم ولدت.. وربما قبل أن أولد.. ولكنى وجدته بجانبى عندما فتحت عينى على الحياة.. بجانبى وأنا لا زلت رضيعة.. بجانبى ونحن نلعب سويا فى ساحة الدار.. بجانبى وأنا فى العاشرة من عمرى وقد بدأت أنوثتى تنطلق فى اعطافى..

وفى هذا العمر أصبح حبى حقيقة وأملا مرتقبا.. انى سأتزوجه.. لم يحدثنى أحد عن الزواج.. ففى بلادنا لا يتحدث البنات عن الزواج، ولا يحدثهن أحد عنه، كأنه خطيئة لا يتداول سيرتها إلا الشياطين.. ولكنى اعتبرت نفسى زوجة له وعشت هادئة.. أهدأ من عمرى.. فى انتظار اليوم الموعود.. لم أكن ألعب لعب البنات، ولا أهتم بما يهتم به البنات، كان فى قلبى سعادة غامرة.. تغنينى عن اللعب وعن الصديقات.. وكنت كلما جاء ابن عمى الينا، والتقيت بعينيه، أحسست بدمائى تزغرد فى عروقى.. أحسست كأنى أزف اليه.. ولم يكن بيننا أبدا أكثر من هذا اللقاء.. لقاء عينى بعينيه، ولمسة يدى ليده وهو يصافحنى..

وكنت أعرف نصيبى من الحياة بعد الزواج.. انه نصيب لا يزيد عن نصيب أمى.. سأبقى فى البيت انتظره مهما طال انتظاره.. ولن آخذ منه الا هذه اللحظات التى يتفضل بها علىّ، وربما شممت من فمه رائحة الخمر التى تفوح من فم أبى.. وكنت راضية بهذا النصيب، لم أطمع أبدا فى أكثر منه، لم يخطر لى أن أثور على التقاليد، أو أنتقدها.. ولم أكن أحس بهذا

السجن الكبير الذى يضمنى وكل بنات بلدى.. كنت سعيدة، هادئة، هادئة دائما..

وأسمونى فى البيت، العاقلة!

الى أن كان يوم..

وتقرر أن يسافر ابن العم الى خارج بلادى ليتلقى العلم.. هكذا قالوا، ليتلقى العلم!

وانقبض قلبى، وتوجست خيفة.. أحسست بدمائى تهرب منى، وقضيت أياما مذهولة، لا أستطيع أن أنظر فى قلبى، حتى لا أفجع.. لا أستطيع أن أحادث نفسى، حتى لا تهزمنى نفسى..

وجاء يودعنا، ووقف قبالتى، وعيناه فى عينى، ويده فى يدى.. وتجرأت وقلت، وأنفاسى تتهدج:

— لعلك لا تسلونا يا ابن العم..

وأجاب وصوته القوى يسرى كالنغم فى أعصابى:

— متى استطاع الانسان أن يسلو دمه..

وسافر..

وبقيت فى انتظاره عامين، لا يصلنى منه الا ما يقوله فى خطاباته لأهله.. وتحيات يرسلها باسمى.. وكان يكفينى منه هذا.. يكفينى أن أعلم أنه يكتب اسمى بيده..

وعاد..

عاد وفى يده زوجة أجنبية.. بيضاء، شقراء، مكشوفة الصدر، والذراعين، مصبوغة الوجه.. لا يبدو عليها أثر من آثار السجن الذى تعيش فيه، كل شىء فيها منطلق جرىء.. نظراتها، وابتساماتها، وكلماتها!

ووقفت واجمة، كأنى أصبت بسهم الله، وابن عمى وزوجته واقفان أمامى.. ولم أكن أنظر اليه، كنت أنظر اليها، أبحلق فيها!

وحاول من حولى أن يخرجونى عن ذهولى.. أن يجعلونى أتكلم.. وصرخ فىّ ابن العم حتى لا تضيق زوجته بنظراتى.. ولم أتحرك، ظللت هكذا دقائق، ساعات، لست أدرى.. ثم جريت من أمامها.. وهرعت الى مرآتى،

أنظـر فيهـا الى وجهى الأسمـر وشعـرى الأسـود.. ثم أمسكت بقطعـة من الليف الخشن، وأخـذت أحك بها جلد وجهـى فى قسوة.. بكل قـواى لعلنى أستطيع أن أصبح بيضاء.. مثلها!

ولكن، كل ما حدث أن انبثقت الدماء من بشرتى..

وانهرت باكية..

وعرفوا انى أحبه.. احب ابن العم، وحاولوا أكثر أن يخفوا خبر حبى عن أبى، حتى لا تقع المصيبة الكبرى!

كم بكيت، أيـامـا ، شهـورا.. لسـت أدرى، أيضـا. ولكنى كنت أفيق من بكائى، فـأرى الدنيا تهتـز من أمامـى، وطنين يملأ رأسى، وأشبـاح سود تحيط بى.. وأفكار عجيبة جريئة تتراءى لى!

واستطعت أن أشترى من السـوق ـــ بواسطـة جـاريتى ـ أنـواعـا من الأصباغ. وأخـذت أقف أمام المرآة وأصبغ شفتى بـالأحمر.. وأضع البودرة على وجهى، وأمزق ثوبى عن صدرى، وعن ذراعى، لأبدو مثلها.. مثل المرأة التى أعجبت ابن عمى. فتزوجها!

وأسمونى فى البيت : المجنونة !

وأصبح كل همهم أن يخفوا جنونى، حتى لا يعرفه أهل بلدى!

وبعـد شهـــور زوجـونـى.. ولم أكن أستطيع الـرفـض.. لأن أحـدا لم يسألنى، حتى أوافق أو أرفض.. زوجـونى فى الخامســة عشرة من عمـرى، رجلا فى الخمسين من عمـره، تزوج قبلى مرتين.. وسكت متظاهـرة بالهدوء الى أن كانت ليلة زفاف.. ومـا كاد الرجل يقترب منى حتى صرخت.. صرخت بأعلى صـوتى، وظللت أصرخ حتى فتحـوا علينا البـاب.. وصفعتنى أمى.. وصفعتنى أختى.. وصفعنى الـرجل العجـوز الـذى زوجـونى لـه.. ولكنى ظللت أصرخ، وأصرخ.. ثم أقـــوم وسط الحجـــرة وأرقص.. ثـم أغنى.. ثم أصرخ .. ثم أبكى!

ولم أكف عن البكاء والصراخ، الا عندما آمن الرجل انى مجنونة!

وحملـونى الى بـد قـريب، وأدخلـــونى فى مستشفى لمرضى الأمـراض العصبية.. مستشفى المجانين!

ولم أكن مجنونة!
كل ما حاولته هو الهرب من قدرى!
وكل ما بقى من مظاهر جنونى هو أنى لا أكف عن التساؤل:
هل الله رجل؟
ان كل بنات بلدى يسألن نفس السؤال..
فهل هن أيضا مجنونات؟!



السكرتيرة والزوجة

أنا سكرتيرة الأستاذ عصام عبدالرحمن !

وكلكم تعرفون الأستاذ عصام.. تقرأون له مقالاته وقصصه، وتسلمون له عقولكم وقلوبكم ليقودها بقلمه!

ولكنكم لا تعرفونني!

وأؤكد لكم أنكم لن تعرفوا الأستاذ عصام الا اذا عرفتموني!

لقد التقيت به لأول مرة منذ خمس سنوات، عندما ذهبت اليه فى مكتبه بدار الجريدة، ومعى خطاب توصية من أحد أصدقائه، لأشغل وظيفة سكرتيرة خاصة له.. وكنت أتخيله كما يتخيله كل قرائه.. كهلا فى الخمسين على الأقل.. جادا وقورا.. خبيثا.. مغرورا.. ولكنى وجدته انسانا آخر.. شابا قد يزيد عمره عن الخامسة والثلاثين، ولكنه يبدو فى الثلاثين.. بسيطا الى حد السذاجة.. متواضعا بلا تكلف كأنه لا يعرف نفسه!

ودخلت اليه بلا مقدمات.. قلت للساعى الواقف فى الصالة الخارجية:

— الأستاذ عصام من فضلك!

فأشار بيده الى أحد الأبواب، وقال دون أن يتحرك من مقعده:

— تفضلى..

وطرقت الباب طرقات خفيفة ولم يرد أحد.. وطرقته طرقات أشد فلم يرد أحد أيضا، ففتحت الباب ودخلت ووجدته جالسا وراء مكتبه يكتب.. وظللت واقفة أمامه بضع دقائق وهو لا ينتبه الى .. ثم اضطررت أن أنبهه قائلة:

— تسمح يا أستاذ..

ورفع رأسه وما كاد يلمحنى حتى ابتسم ابتسامة كبيرة، لم تستطع أن تمسح خطوط الانهاك من فوق جبينه، والنظرات الشاردة فى عينيه!

وقدمت اليه الخطاب، وقلت فى أدب:

— أنا بعتنى الأستاذ عمر، علشان..

وقاطعنى فرحا:

— انتى السكرتيرة ؟

قلت :

— بإذن الله !

قال وهو يقوم واقفا ليصافحنى :

— أنـا قلت لهم يحطـوا لك مكتب فى الأودة اللى جنبى.. وانشـاء الله حنقدر نتعاون سوا!

قلت فى دهشة :

— أنا خلاص اتعينت؟!

قال وهو لا يحاول أن يقرأ الخطاب الذى قدمته اليه:

— انتى مش عايزة تبقى سكرتيرة؟ خلاص !!

قلت وأنا أبتسم فى وجهه كأنى ابتسم فى وجه طفل:

— بس لازم أعرف اختصاصاتى .. أعرف سيادتك محتاج لى فى ايه!

واختفت الابتسـامـة من على شفتيـه، ومرت على وجهـه سحـابـة من الحيرة.. وعـاد يجلس وراء مكتبـه، ثم أشـار لى بيـده لأجلس على المقعـد المقابل.. وقال فى صوت كسول كأنه يحلم:

— أنا الحقيقة ما اعرفش اختصاصات السكرتيرة تبقى ايه.. أنا عمرى مـا كـان عنـدى سكـرتيرة.. وعمـرى مـا فكـرت يبقى لى سكـرتيرة.. إنما أصحـابى كل مـا يشـوفـونى تعبـان فى شغلى ، يصممـوا علىَّ أن أجيب سكـرتيرة.. ومتهيأ لى أن شغلة السكـرتيرة، زى شغلة ست البيت. مـراتى بتنظم لى حيـاتى فى البيت، والسكـرتيرة تنظـم لى حيـاتى فى الشغل.. وأنـا عمرى ما أعرف أنظم حاجة.. أنـا أقدر أكتب لك كتاب فى تنظيم الدولة.. انما أعجـز عن انى أنظم درج مكتبـى، أو أنظم وقتى.. أنـا شـغلى كلـه ملخبط، أوراقى ملخبطة.. وكتبى ملخبطـة.. ومواعيدى ملخبطـة.. ومتهيألى انى لو نظمت الحاجـات دى كلهـا حـاأقـدر انتج اكتر. واستريح أكتر.. ومش بس كـدة.. متهيألى ان اختصـاص السكـرتيرة، انها تبقى حتة من عقلى.. تـدخل جـوه عقلى وتنظمه.. عقلى زى الـراديـو فيه محطـات كتير.. فيـه سياسـة

واجتماع ومقالات وقصص ومحاضرات.. ومفتاح الراديو ده لازم يكون فى ايد أمينة فاهمة.. تدوره زى ما هى عايزة.. تدوره على المحاضرات يقول محاضرات!

وسكت الأستاذ عصام برهة، ثم استطرد:

— متهيألى انى بأقول كلام خيال.. زى ما أكون باحلم!

قلت :

— ابدا .. سيادتك فاهم شغلة السكرتيرة كويس!

وابتسم ابتسامة صغيرة، ثم فتح درج مكتبه، وأخرج حزمة من المفاتيح، ناولها لى، قائلا:

— دى كلها المفاتيح اللى حيلتى.. مفاتيح مكتبى، ومفاتيح الدواليب اللى فى الأوده دى، والأوده اللى جنبها.. دواليب مليانة أوراق ودوسيهات ومراجع.. ولازم كلها حاجات مهمة بدليل انى احتفظت بيها.. انما ما أقدرش أقول لك هى ايه، لأنى ناسى أنا شايل ايه ورميت ايه.. ولما باعوز حاجة من الدواليب دى باقعد جمعة وجمعتين أدور عليها ويمكن مالقيهاش!

وقمت لأخرج وأنا مذهولة من الثقة التى وضعها فىّ دون أن يعرفنى.. انه لم يسألنى شيئا، لم يسألنى حتى عن اسمى.. والتفت اليه قبل أن أخرج من الباب، وقلت له:

— أنا اسمى خديجة!

ولكنه كان قد عاد وأمسك بقلمه وبدأ يكتب.. فلم يسمعنى!

وابتسمت وخرجت !

وهكذا بدأ عملى مع الأستاذ عصام عبد الرحمن..

وقد وجدت فى الدواليب كنوزا مهملة.. قصصا رائعة كتبها عصام، واحتفظ بها ليعدها للنشر ثم نسيها.. وعقودا لم تسدد قيمتها، ملقاة وسط وثائق سياسية، و..و..و.. وقضيت شهرين وأنا أنظم هذه الكنوز فى مجموعات متناسقة مرقمة.. ثم بدأت أفهم عمل الأستاذ عصام.. وأفهم عقليته.. وتصرفاته.. وأدرس أعصابه.. وبدأت أتدخل فى كل شىء.. كل

شيء.. حتى انى كنت أعد أعقاب السجائر التى يتركها فى المنفضة بعد أن يخرج، لأعرف كم سيجارة دخنها.. وأذوق القهوة التى يشربها حتى أتأكد من أن عامل البوفيه لا يغش البن.. وكنت أطوف بالمكتبات قبل عودتى للبيت، لأشترى له الكتب الحديثة وكنت أفاوض ناشرى قصصه.. واستطعت أن أرفع ما يدفعونه له الى ثلاثة أضعاف.. وكنت أنا التى أقبض له نقوده.. وأنا التى أضعها له فى جيبه.. وفى الوقت نفسه جعلت من مكتبه قطعة من الجنة.. قطعة مشرقة.. منيرة.. أزينها كل يوم بوردة حمراء!

ولم أكن أستطيع تنظيم الأستاذ عصام، الا اذا نظمت علاقته بكل من يشتغلون معه فى الدار.. سواء من المحررين أو السعاة.. وحاول هؤلاء أن يتمردوا على، وأن يتحدوا سلطاتى.. ولكنى استطعت أن أخضعهم وأطوى ثورتهم.. فلم يعد واحد منهم يستطيع أن يتصل بالأستاذ الا عن طريقى.. ولم يعد الأستاذ يبتسم لواحد منهم الا اذا ابتسمت له أنا أولاً..

كل ذلك والأستاذ مستسلم لى كالطفل الذى وجد أمه.. أصبح لا يرى الا بعينى.. ولا يسمع الا بأذنى.. وهو سعيد.. انه يرى انتاجه يزداد.. ودخله يزداد.. ويومه يتسع.. وعقله المرتبك يصفو.. ونفسيته الحائرة تستقر..

وبدأ الذين يشتغلون فى دار الجريدة يحاربوننى بالإشاعات.. أشاعوا أن بينى وبين الأستاذ علاقة حب، وأنه يتردد كل مساء على الشقة الصغيرة التى أقيم فيها وحدى، والتى تطل على ميدان سليمان باشا.. ولم تكن هذه الاشاعة صحيحة.. أقسم لكم أنى فى خلال ثلاث سنوات قضيتها فى وظيفة السكرتيرة لم يكن بينى وبين الأستاذ شيء.. ورغم ذلك فلم يكن عصام مجرد رجل اشتغل عنده.. كان أكثر من ذلك بكثير.. كنت أحس كأنه ابنى.. أكثر من ابنى.. انه شيء أملكه.. أملك عقله.. وأملك وقته.. شيء أصنعه بيدى.. وأنتم لا تدرون كم كنت أبذل فى صنعه.. لقد كنت أذهب الى المكتب فى الساعة الثامنة صباحا، لأعد له أوراقه، وأعد له برنامج يومه.. ثم أخرج فى الساعة الثانية مساء لأتناول غدائى، وأنا أفكر فيما ينقصه، وفيما سأعده له فى المساء.. ثم أعود الى المكتب ملهوفة كأنى غبت عنه أياما.. وكأن عصام قد فقد منى.. وأظل حتى التاسعة مساء ثم أضطر أن أعود الى

بيتى، وأتركه فى المكتب ليكتب.. ولا أنام.. بل أظل ساهرة بجانب التليفون، لعله يحتاج لشىء فيطلبنى.. وأقضى الوقت أقرأ الصحف الفرنسية والانجليزية وألخصها له لأعرضها عليه فى اليوم التالى، حتى أقدر أن عصام قد انتهى من عمله وعاد الى بيته.. فأنام.. لأصحو ملهوفة عليه..

وقد كنت أغار عليه.. هذا صحيح.. ولكنها لم تكن غيرة كغيرة البنات.. نوع آخر من الغيرة.. كنت أغار على كل شىء أملكه.. وأخاف أن يأخذ احد منه شيئا.. أن يسرقه أحد منى.. أن يهدم جزءا مما أبنيه.. كنت أغار عليه غيرتى على عملى..

وعصام متزوج كما تعلمون..

وقد رأتنى زوجته لأول مرة بعد أن استلمت عملى بثلاثة أشهر.. ولا شك أنها اطمأنت الىّ عندما رأتنى.. فأنا لست جميلة.. لست أجمل منها ولا فى مستوى جمالها.. ربما كان قوامى أرشق من قوامها، ولكنى لست جميلة الوجه، ولا يبدو علىَّ أنى من صنف البنات اللاتى يصطدن الرجال.. كل ما يبدو علىَّ أنى فتاة جادة.. فتاة عمل..

ولكن على مر الأيام بدأت الزوجة تحس بنفوذى وسلطاتى داخل دائرة عمل زوجها.. وربما أحست باستسلام زوجها لى.. حتى أنها أصبحت تأخذ مصروف البيت عن طريقى.. واذا سألت عن شىء.. عن أى شىء قال لها: «اسألى خديجة».. اذا سألته:

— نقدر نروح سينما الليلة؟

أجاب ببساطة وسلامة نية:

— أما أسأل خديجة .. أشوف ورايا ايه!

وبدأت الزوجة تغار.. وبدأت تحاول أن تشعرنى دائما بأنى سكرتيرة.. مجرد سكرتيرة.. ولا يمكن أن أكون أكثر من سكرتيرة.. كانت تتصل بى فى التليفون، وتقول لى من طرف أنفها:

— من فضلك وانتى جاية، فوتى على شيكوريل هاتى الفستان بتاعى من عنده!

وكنت ألبى أوامرها.. ولكنها تمادت.. وأحسست أنها تتعمد اهانتى

وتحقيرى. فلم أعد أؤدى لها شيئا.. انى سكرتيرة زوجها، ولست سكرتيرتها..واختصاصاتى هى عمل زوجها، لا احضار ثيابها من عند شيكوريل..

وبدأت معركة صامتة بينى وبينها..

كانت تأتى الى المكتب.. وتنقل الزهرية من مكانها الى مكان آخر.. وتنقل هذا المقعد.. وهذه المنفضة.. وتلقى أوامر الى السعاة..و..و.. وأنا أكاد أجن.. انى لا أتدخل فى شئون بيتها، فلماذا تتدخل فى شئون بيتى.. وهذا المكتب هو بيتى.. بيتى أنا.. ليس لى بيت آخر أنا سيدته.. وقد ضحيت فى سبيل هذا البيت.. بل رفضت أن أتزوج.. وأرفض أن أتزوج.. فى سبيل هذا البيت.

وصبرت على الزوجة!

ثم جاءت يوما الى المكتب.. وحاولت أن تدخل الى زوجها فقلت لها فى أدب:

— عنده اجتماع..

وكان فعلا مشغولا باجتماع هام مع شخصية سياسية كبيرة. ولكنها صرخت فى وجهى كأنها تصفعنى:

— انتى اتجننتى.. ازاى تمنعينى ادخل لجوزى.. انتى فاكرانى موظفة زيك.. انتى زودتيها قوى.. لازم تعرفى حدودك!

وسكت!

وفتحت الباب ودخلت..

ومن يومها أصبحت الحرب بينى وبينها سافرة!

من يومها أصرت على أن يطردنى عصام من العمل.. وجمعت كل الاشاعات الكاذبة التى أشيعت عنى وعنه وأشهرتها فى وجهه.. انت بتحبها.. انت بتخونى معاها.. الصرصارة.. الوحشة!

وبدأ عصام يتعذب!

وبدأ عذابه يربك تفكيره.. وروحه.. وعمله.. وعجزت ان أسيطر عليه.. عجزت أن أدير مفتاح الراديو.. كما كنت أديره!

وكنت أعرف أنه يعانى أزمة الخيار بينى وبين زوجته.. إما أن يطردنى.. أو يطلقها.. وكان أضعف من أن يختار.. كان أطيب قلبا من أن يضحى بزوجته التى عاش معها أكثر من عشر سنوات.. وأضعف من أن يستغنى عنى، وهو يعلم مدى حاجته الىّ!

وكنت أتمنى أن يطلقها.. ما جدواها فى حياته.. ما جدوى أى زوجة فى حياة فنان مثل عصام.. انها فقط مظهر.. انها ثوب يرتديه استكمالا للشكل.. انها لا تعينه فى عمله، ولا فى حياته.. بالعكس انها عبء عليه.. انها عذاب يسرى فى أعصابه.. وأنا التى يحتاج اليها.. أنا التى تدير مفتاح الراديو ليملأ آذان العالم فنا ومجدا.. انه يرانى أكثر مما يراها.. وأتعب من أجله أكثر مما تتعب.. هذه المدللة التافهة!

الى أن كان يوم!

ودخلت الزوجة علىّ كالزوبعة، وصرخت فى وجهى:

— اسمعى، انتى لازم تخرجي من هنا حالا، دلوقت، اذا كان عصام مش قادر يقول لك انك لازم تنطردى، أدينى باأقولك.. كفاية.. خسرت سمعته.. وهدمت بيته.. امشى اطلعى برة!

ورفعت رأسى، ونظرت اليها باحتقار، وقلت:

— لو كنت عارفة ان الاستاذ عصام مش عايزنى، ما كنتش استنيت لغاية ما يطردنى.. وأحب أقولك انه محتاج لى أكثر منك.. انتى صحيح مراته.. انما ما تعرفيش انه أطيب من أنه يخونك!

وعادت تصرخ:

— امشى اطلعى برة.. اطلعى برة.. انتى مرفوتة.. مرفوتة!

وتجمع المحررون عند الباب يشاهدون الخناقة بين الزوجة والسكرتيرة، وقلوبهم ترف بالشماتة!

وخرج عصام من مكتبه، ووقف بين زوجته وسكرتيرته ذاهلا !

ونظرت اليه بكل عينى!

ولأول مرة أعرف أنى أحبه.. أحبه ضعيفا كما هو.. ذاهلا كما هو.. فنانا كما هو.. أحبه أكثر مما تحبه زوجته.. وألف امرأة مثل زوجته.. ولأنى أحبه أكثر منها.. كان يجب أن أضحى به!

تركته !

وعدت الى بيتى أبكى.. أبكى كل ما بنيته.. أبكى الانسان الذى صنعته بيدى.. وانقضت أيام طويلة.. وأنا وحدى.. أفكر فيه.. وأتبعه بخيالى.. ترى هل كتب المقال.. هل أعد مسودات الكتاب.. هل حضر الاجتماع.. هل قبض الشيك.. هل عاد عامل البوفيه يقدم له قهوة مصنوعة من بن مغشوش.. و..

ومضى أكثر من عشرين يوما!

وكنت جالسة فى بيتى وحدى.. والساعة الحادية عشرة مساء، عندما دق جرس الباب!

وارتديت «الروب دى شامبر» فوق قميص النوم، وفتحت..

انه عصام!

مذهولا.. ممتقعا.. شارد العينين..

ودخل صامتا دون أن أدعوه الى الدخول، وأخذ يطوف بأرجاء الغرفة فى خطوات تائهة.. لا يتكلم..وأنا أنظر اليه، وقلبى يخفق!

ورفع رأسه، وقال كأنه يبكي:

— أنا مش قادر يا خديجة.. مش قادر استغنى عنك.. مش عارف أشتغل.. مش عارف أعيش.. مش عارف أكتب.. حياتى ارتبكت أكتر من الأول!

واقتربت منه، ووضعت أطراف أصابعى على كتفه، وقلت وكلماتي ترتعش:

— أنا لسه معاك.. حافضل طول عمرى معاك..

ونظر إلىّ طويلا .. ثم فجأة جذبنى اليه.. وضمنى الى صدره بقوة.. وأخفى وجهه فى عنقى وهو يقول:

— ماتسيبينيش يا خديجة ما تسيبينيش..

●●●

لقد رفضت الزوجة أن أكون سكرتيرة لزوجها..

فأصبحت عشيقة له..

أرجوكم .. لا تلومونى.. ولا تلوموه..

هكذا أرادت .. الزوجة..





القطة



لا ادرى، هل تبدو قصتى غريبة مثيرة، ام انها قصة عادية.. قصة عشرات البنات غيرى؟؟ انها فى نظرى تبدو قصة عجيبة.. وانظر الى نفسى كأنى فريدة بين البنات.. فريدة بما أحمله فى صدرى من عذاب، وفريدة بما يدور فى رأسى من أفكار..

لقد كان ابى يعمل فراشا فى احدى الشركات.. أو «ساعى» فقد كان يكره ان يقول عن نفسه انه فراش، بل كان يكره ايضا ان يقال عنه انه «ساعى».. كان لقبه المفضل، موظف فى شركة الغزل والنسيج..

وكانت أمى تعمل خادمة عند شريفة هانم.. كانت أكبر قليلاً من مجرد خادمة.. أو كانت خادمة من نوع خاص..

وكنت أنا واحدة من سبعة اخوة واخوات.. كان فوقى ولدان وبنتان.. وتحتى ولد وبنت.. وكنت اجمل البنات، وأذكاهن.. سمراء، لا اكف عن اللعب والضحك.. وكنت اذهب مع أمى كثيرا الى بيت شريفة هانم. وكانت شريفة هانم تدللنى كثيرا.. كانت تعطينى الشيكولاتة، وقطع الحلوى، واحيانا ثوبا قديما من ثيابها.. ولم يكن لشريفة هانم أولاد.. توفى زوجها دون ان تنجب، وكانت تعيش فى قصرها وحيدة.. تلعب الكوتشينة وتقيم الحفلات..

ومع الأيام ازداد تعلق شريفة هانم بى.. لقد كنت اسليها.. وأثير فيها حنانها المكبوت.. فاتفقت مع أبى وأمى على أن تأخذنى!

نعم.. تأخذنى!

وتنازل عنى أبى وأمى بسهولة.. ربما اعتقدا يومها انهما يبيعانى الى النعيم.. وقد كان قصر شريفة هانم نعيما بالنسبة لبيتنا..

وانتقلت الى القصر الكبير، وأصبحت سلوة شريفة هانم الوحيدة.. تضعنى بجانبها طوال اليوم.. وأنام بجانبها فى سريرها طول الليل.. ولا تكف عن تدليلى، ومسح وجهى وشعرى بيديها.. وكانت تنادينى

دائما.. قطتى.. تعالى يا قطة.. روحى يا قطة.. خدى شيكولاتة يا قطة!

وفرحت بانتقالى الى القصر الكبير.. الى النعيم.. احسست كأنى ملكت الدنيا.. وكنت انادى شريفة هانم.. ستى.. ولكنها طلبت منى ان أناديها.. طنط.. ثم بعد شهور، وبعد ان ازدادت تعلقا بى طلبت منى أن أناديها.. ماما..

وليس معنى هذا انها تبنتنى تبنيا قانونيا.. انها لم تتخذ أى اجراء قانونى.. ولا زلت لا استحق شيئا فى إرثها.. ولا يزال اسمى فى شهادة الميلاد: زينب عبد الله عبد الفتاح.. بنت عبدالله عبدالفتاح.. ساعى بشركة الغزل!

وكان شعورى نحو شريفة هانم غامضا فى مبدأ الأمر.. كانت فرحتى بالنعيم تلهينى عن فهم شعورى نحوها.. ولكنى مع الأيام بدأت أضيق بتدليلها لى.. وبدأت أنفاسى تتمزق كلما قبلتنى أو ضمتنى.. وبدأت أحس كلما نمت بجانبها، برغبة فى الفرار.. حتى لو نمت على الرصيف.. ولكنى لم أكن استطيع ان افصح عن شعورى.. كنت اكتمه واحس انى ادفع ثمن النعيم الذى أعيش.. ثم أخيرا عرفت أنى لا أحب شريفة هانم.. بل لا أحس بفضل لها علىّ ولكنى فقط محتاجة اليها.. وهى أيضا محتاجة إلىّ!..

ثم تنبهت الى لقب «قطة» التى تدللنى به.. إنى فعلا قطة.. وهى تدللنى كما تدلل قطتها.. وتشترى لى الثياب والحلى.. كأنها تعلق فى رقبة قطتها شريطا من الحرير.. وجلجلة من الذهب.. وإذا كان يقال عن القطة إنها «تعرف المكان ولا تعرف السكان» بمعنى انها لا تحب صاحبها ولكنها تحب المكان الذى تأكل فيه.. فكذلك أنا.. أنا لا أحب شريفة.. ولكنى أحب النعيم الذى أقيم فيه!

وأصبحت أكره القطط.. أصبحت أجن وأصرخ كلما رأيت قطة..

وانا كنت لم أحب شريفة هانم.. فقد فقدت أيضا حبى لأمى.. لقد كانت تأتى الى البيت لتخدم فيه، كما كانت دائما.. ووجدت نفسى حائرة.. هل اعتبرها أمى، أم اعتبرها خادمة.. ولم أكن استطيع أن اعتبرها أمى.. ولم أكن استطيع ان اعتبرها مجرد خادمة.. فأصبحت أضيق برؤيتها.. واتشاجر معها كلما التقينا.. حتى اضطرت شريفة هانم أن تمنعها من

التردد على البيت! دون ان تحرمها من أجرها.. ولم تعترض أمى، ما دامت تقبض أجرها.. وأصبحت لا أراها إلا فى فترات متباعدة.. وللحظات قصيرة..

وأخذت أعيش حياة شريفة هانم.. حياة المجتمع الذى تنتمى إليه شريفة هانم.. وساعدنى ذكائى.. وساعدتنى شريفة هانم.. التحقت بمدرسة الميرددييه. وأجدت الفرنسية والانجليزية وكنت فى الخامسة عشرة من عمرى أصنع ثيابى عند مدام افلاطون، وأذهب الى الكوافير مرتين فى الأسبوع، وتأتى عاملة المانيكير الىّ لتقلم أظافرى.. وكنت أرشق بنات المجتمع.. وأجملهن.. وأخفهن دما.. وأذكاهن.. إنى لم أكن استطيع شيئا بغير ذكائى.. ان الرشاقة، والجمال، والنجاح فى المجتمع، كان الفضل فيه لذكائى قبل ان يكون لأموال شريفة هانم..

واستقبلنى المجتمع مبهورا..

كنت أدير الرؤوس فى كل مكان أدخله.. وربما لاحظت بعض الهمسات التى تدور حولى.. ولكن لا يهم. ما دام معى ذكائى وجمالى..

وأصبحت فى السادسة عشرة

وبدأت أبحث عن الرجل الذى أتزوجه.. وكان من حقى ان يكون لى زوج يستطيع ان يكفل لى حياة كالتى أعيشها فى القصر الكبير.. لم أكن استطيع ان اتزوج كما تزوج إخوتى البنات.. مستحيل.. انهن لسن اخوتى.. لقد ابتعدت عنهن كثيرا .

وبدأت أنتقى الشاب الذى أريده.. ولم يكن هذا صعبا فكل أولاد الطبقة الراقية يجرون ورائى.. ويضعون تحت قدمى شبابهم وثرواتهم.. والأصل العريق!

واخترت واحدا منهم..

انه يحبنى.. يحبنى جدا.. انه يبكى بالدمع أمامى.. ولكن.. ولكنه لا يستطيع أن يتزوجنى.. امه لا تريد.. وأبوه لا يريد وهو لا يستطيع.

وتركته واخترت واحداً ثانياً ..

إنه يحبنى.. يحبنى جدا.. انه يبكى بالدمع أمامى.. وقد منحته أكثر قليلا مما منحت الأول.. حتى أملكه أكثر.. ولكن.. انه لا يستطيع أن يتزوجنى..

والثالث.. و..

وتنبهت الى الحقيقة المرة.. ان المجتمع لا يريـد أن ينسى أنى ابنة عبدالله عبدالفتاح الفـراش، وابنة نعيمة الخادمة.. المجتمع لا يـريد ان يعترف بأنى ابنة شريفة هانم.. المجتمع كله كشريفة هانم لا يعتبرنى أكثر من قطة.. قطة شريفة هانم.. قطة تنتقل بين الموائد، وتموء، ويربت الناس على ظهرها..

وتملكنى احساس جارف بالعناد..

يجب ان اتـزوج..واتزوج واحـدا من أبناء هـذه الطبقة.. ولكن.. الشـاب الرابع أيضا طار.. والخامس.. وكلهم يحبـوننى.. ويتذللون الى.. ويهبوننى ما أريد من أموالهم ويصحبوننى فى سياراتهم.. ولكنهم لا يتزوجوننى.

وشريفة هانم تعـرف مأساتى.. لقد شكوت اليهـا فى لحظة ضعف.. وكل ما فعلته ان هونت على.. انتى لسـة صغيرة يا قطة مستعجلة على الجواز ليه يا قطة..

ربما كانت لا تريد ان تزوجنى حتى أظل بجانبها.. قطتها..

وتملكنى حقد عنيف ..

حقد على المجتمع كله.

وعندما حقدت انصب حقدى على شريفة هانم..

أصبحت أعاملها بقسوة.. وأتلذذ بجرح احساسها.. كنت أنشب أظافرى فى كبريائها وفى شيخـوختها وأمزقها.. وهى تثـور حيناً، ثم تهدأ.. وتسكت، وتحتملنى .. لا أدرى لماذا ؟

وتقدم إلىّ ضابط شاب ليخطبنى .. إنه من أصدقاء زوج أختى ، ومرتبه أربعـة وعشرون جنيها .. وأحسست أنى أهنـت .. كأن الدنيـا مـدت يدهـا وصفعتنى.. انى لا زلت ابنـة أبـى الفـراش وأمى الخادمـة.. ولا زلت أختـا لأخواتى.. ولا استحق إلا زوجا مرتبه أربعة وعشرون جنيها..

ورفضته..

ورفضته وأنا أصرخ فى وجه أمى وأختى..

إنى لن أتـزوج إلا واحدا مـن طبقتى.. طبقة القصر الكبير.. ولكن شبـان هذه الطبقـة لا يتزوجوننى.. انهم فقط يشتهـوننى.. وازددت حقدا عليهم.. وأصبح الحقـد انتقامـا.. أصبحت أدمـر كل من يقترب منى.. استطعت أن أتسبب فى طلاق اثنين.. وأن أفسخ خطـوبة ثـلاثة.. وان أمتص ثـروة واحد

منهم الى أن ارسلـه أبـوه الى أوروبـا ليبعـده عني.. وكل ذلك وانـا ضنينـة بنفسي عليهـم.. لم يستطع شـاب أن يلمـس جسـدى.. لا إيمانـا منى بالفضيلة.. ولكنى كنت أقتلهم بالحرمان، وأعذبهم بشهوتهم!

ومرضت شريفة هانم..

أصيبت بالشلل، وأصبحت لا تقـوى على الحركة.. لا شيء يتحـرك فيها إلا عينيهـا ولسانها.. وجلست بجـانبها أبحلـق فيها.. لم أشعـر بالشفقـة عليهـا.. لم يتحـرك قلبى لـوعـة عليهـا.. انما كنت أفكـر.. إنها ستمـوت، وستتركنى بلا شيء.. انى لن ارثها.. لن ارث شيئا من هذا النعيم.. وفجأة.. وبكل جـرأة.. قمت وفتحت دولابها وأخذت مصـاغها، وكل مـا وجدتـه من نقود.. فعلت ذلك امامها.. وهـى تنظر الىّ فى فزع، ولا تستطيع ان تتحرك.. وقالت ولسانها الثقيل لا يكاد يحمل كلماتها :

— ليه بس يا بنتى..

وقلت وأنـا أمد يـدى وأجمع المجوهـرات فى جشع، كالقطـة التى تسرق قطعة اللحم من طبق صاحبها:

— أنا مش بنتـك.. لو كنت بنتك ما كنتـش عملت كده.. أظن فـاكره انك تموتى وتسيبينى أشحت.

وقالت والفزع يملأ وجهها، ولسانها يزداد ثقلا:

— أنا .. أنا !

ثم سكتت!

شل لسانها.. شل نصفها الآخر..

وأخذت المجوهرات والنقود واخفيتها عند أمي.. وعدت إلى القصر.. أدخل الى شريفـة هانم، فتنظـر إلىّ فى فـزع، ويتحرك لسـانها بهدير غير مفهـوم، وأنظر اليها فى قسـوة كأنى اخنقها بعينى.. ثم أتركهـا للممرضة، ولا أريها وجهى حتى الصباح التالى.

وماتت..

ربما عجلت بموتها فعلا..

وفتحوا وصيتها..

لقد أوصت لى بالقصر.. وبمجوهراتها.. وبأموالها فى البنك ..

أوصت لى بثلث ثروتها..

وأفقت..

أفقت من حقدى..

لقد كانت تحبنى.. إنى لم أكن مجرد قطـة.. إن الناس لا يوصون للقطط بثلث ثرواتهم.. ولم أكن أدرى!

وبكيت، لعلها المرة الأولى التى أبكى فيها..

وذاع خبر الوصيـة.. وتقدم إلىّ ثـلاثة شبـان من شبان المجتمع الـراقى ليتزوجونى.. ورفضتهم.. إنى أعرف لماذا يريدون الآن الزواج.. إنى لا زلت فى نظرهم ابنة نعيمة الخادمة.. لا ابنة شريفة هانم.. ولكنى ثرية!

وبعت القصر الكبير.. واستأجرت بيتا آخـر.. كبيرا أيضـا.. عشت فيه مع أمى وأبى.. واختى الصغرى وزوجها..

ورفضت الزواج..

بلغت الثلاثين من عمرى، ولم أتزوج!

ثم أخيرا .. تزوجت.. أتـدرون من ؟ الضـابط الذى تقـدم لخطبتي وأنا فى التاسعة عشرة.. إن مرتبه الآن خمسة وخمسون جنيها!!





ســوق القتافيت



أنا لاجئ فلسطيني..

وعندما ترن في أذنك كلمة «لاجئ» تثور في نفسك معاني الجهاد، والكرامة المجروحة، والنضال في سبيل استرداد الوطن العربي.. ولكنك تنسى معاني الجوع، والفقر، والتشرد.. ربما لأنك، أنت والجالسين خلف مكاتبهم، لم تعرفوا الجوع، ولا الفقر، ولا التشرد.. فأنتم معذورون!

وقد وصلت إلى معسكر اللاجئين وأنا في الثانية من عمري.. أنا وإخوتي التسعة الصغار.. ملتفين حول أمنا الباكية.. تبكي زوجا قتل، وعالما خرب وضاع..

وعشت سنوات عمري، مع آلاف غيري من اللاجئين.. عشت في خيمة صغيرة ممزقة، تضمنا جميعا.. ونتدفأ في الشتاء بأجساد بعضنا البعض.. ونقضي الأيام لا نفعل شيئا، إلا أن نضيع في الفراغ.. وننتظر المشرفين على اغاثتنا.. وزوارا من مختلف البلدان يأتون الينا وينظرون.. كأنهم ينظرون الى نوع غريب من الحيوانات داخل اقفاص.. وترتفع في عيونهم الحسرة.. ويمصمصون شفاههم.. ويقولون كلمة تبعث فينا الأمل.. ثم يذهبون.. وينسون!

وكانوا يحسنون علينا بأربع بطاطين.. كل ثلاثة منا بطانية.. ولكل واحد منا كمية من الدقيق والسكر والفول، تساوي ١٥٠٠ سعر حراري!

هل تعرف ما هو السعر الحراري؟

لا.. إنك لا تعرف.. لأنك عندما تأكل لا يهمك أن تعرف كم سعر حراري تأكله.. ولكننا نعلم.. ونعلم ان الشخص العادي يحتاج في المتوسط إلى ٣٠٠٠ سعر حراري، كحد أدنى للحياة!!

وكنا نأخذ دقيق القمح الذي يصرف لنا.. ونستبدله عند التاجر بدقيق

أذرة.. حتى يكفينا.. وعندنا تجار تخصصوا فى هذه التجارة.. وتعيش تجارتهم على جوعنا..

ولكن دقيق الأذرة أيضا لم يكن يكفينا.. فكنا نستبدل الدقيق.. بالفتافيت..

إنك لا تعرف ما هى الفتافيت ؟

انها قطعة الخبز الصغيرةالتى تتساقط من على مائدتك، ويلقى بها خادمك فى صفيحة الزبالة.

وعندنا داخل المعسكر، سوق كامل اسمه «سوق الفتافيت».. لا تندهش.. ان اسمه فعلا، «سوق الفتافيت».. تعرض فيه بقايا الأرغفة.. أنصاف الرغيف، وأرباع الرغيف، ولقم من الرغيف.. لمن يشترى ولمن يبيع..

واللاجئون لا يتعاملون بالنقد.. ليس عندنا نقود.. من أين نأتى بها، ونحن نعيش بلا عمل ، عالة على كرم المحسنين.. فكنت عندما احتاج لقلم اكتب به فى المدرسة، تعطينى أمى ربع رغيف، اذهب به إلى سوق الفتافيت، واستبدله هناك بقلم رصاص..

وقد ذهبت إلى مدرسة المعسكر.. كل الأولاد عندنا يذهبون إلى المدرسة، لا إجبارا، ولا لأن التعليم عندنا إلزامى، ولكن لأن ليس هناك شيء آخر نفعله سوى ان نذهب الى المدرسة.. ولأن العلم غذاء مجانى.. وقد تعودنا أن نأخذ كل شيء مجانا.. صدقة لله.. وأخيرا.. لأن العلم كان هو السلاح الوحيد الذى يسمح لنا بحمله!!

وكانت مدرستنا من نوع خاص يليق بنا.. مدرسة فى العراء.. نجلس فيها على قطع من الحجارة.. ويجلس المدرس أمامنا على قطعة حجارة أخرى.. ولم تكن لنا سبورة يكتب عليها المدرس بالطباشير.. بل كان المدرس يكتب على الأرض .. على مساحة من أسفلت الشارع!!

هذه كانت مدرستنا.

وقد بقيت فيها حتى نلت الشهادة التوجيهية..

وكثير من شباب اللاجئين عندما ينالون شهادة التوجيهية، ينتظرون موسم الحج.. ويجمع لهم أهاليهم بعض النقود، وقد تكون لدى أمه أو

أخته، قطعة حلى تبيعها من أجله.. ثم يسافر الى المملكة السعودية بحجة أداء فريضة الحج.. وهو يضطر حتى تبدو حجته صادقة ان يقضى عاما على الأقل وهو يدعى التدين، ويصلى الفروض الخمسة ويصوم رمضان.. فإذا استطاع بعد ذلك أن يسافر إلى السعودية.. كان أول ما يفعله أن يطوف على أبواب الرزق باحثا عن عمل.. إن الله لا يرضى لعبده أن يطوف حول الكعبة وهو جائع مشرد، مجهول المصير.. إنما الطواف الحلال.. الطواف الذى شرعه الله لعبيده.. هو الطواف على أبواب الرزق..

فإذا وجد اللاجىء منا عملا.. أى عمل .. هدأ ، واستراح، واستقر.. وأرسل من كسبه إلى أهله وبنى قومه الراقدين فى معسكر اللاجئين، يرد جميلهم عليه..

وقد كنت فى انتظار موسم الحج لأهاجر إلى السعودية.. أو أى وطن عربى آخر استطيع أن أصل إليه.. ولكن الله أغنانى، وفتح لى باب الرزق فى داخل معسكر اللاجئين.. بين قومى..

عينت مدرسا، بعد أن كبرت المدرسة وأصبح لها بناء..

وأصبح مرتبى سبعة عشر جنيها فى الشهر..

إنها أول مرة ألمس فيها بيدى نقودا أملكها.. كانت كل النقود أراها من بعيد .. لا ألمسها.. وليس لى نصيب فيها..

وفرحت.

وزغردت أمى..

وهلل إخوتى التسعة..

ولكن ما لبثت فرحتى أن اختنقت.. ضاعت كما ضاع وطنى.. فقد علمت ان اللوائح.. لوائح المحسنين.. تنص على أن تحرم العائلة من الاعانة، إذا كان عائلها يكسب خمسة عشر جنيها فى الشهر..

وأنا كبير عائلتى!

ومرتبى سبعة عشر جنيها فى الشهر!

وضاعت الاعانة. ضاعت الـ ١٥٠٠ سعر حرارى التى كان يعيش عليها كل منا!

ماذا أفعل؟

إن سبعة عشر جنيها فى الشهر، لا تكفى لحياة أحد عشر شخصا.. أمى وأنا وإخوتى التسعة.. حتى ولو كنا نعيش فى معسكر اللاجئين.

إننا سنموت من الجوع، والبرد!

وفكرت..

ولم يكن هناك إلا حل واحد، وهو ان ادعى أنى تخليت عن عائلتى، وكونت عائلة أخرى.. وأترك إخوتى وأمى يمرحون فى كرم المحسنين.

ومعنى هذا، ان أتزوج..

ولكنى لا أريد الزواج!

أريد أن أبقى مع أمى وإخوتى أرعاهم، وأعطيهم كل قرش من مرتبى الصغير..

ولم يكن هناك طريق آخر، فقررت أن أتزوج.. زواجا صوريا.. مجرد إجراء شكلى.. لارضاء اللوائح!

وكانت فى المعسكر امرأة عجوز مجنونة.. تدور طول النهار بين الخيام تهذى بكلام غير مفهوم.. فتقدمت اليها أطلب يدها.. أى والله.. هذا ما فعلته.. وإذا بالمرأة المجنونة تفيق من جنونها بغتة.. و.. وتطالبنى بالمهر.. وإذا بأخ يظهر لها.. ويدخل معى فى مفاوضات لا تنتهى.. وكان أخاً واعيا.. لم يفاوضنى على أساس أنى أريد أن أتزوج بأخته المجنونة العجوز.. بل فاوضنى وهو يعلم حيلتى.. ويعلم قيمة الاعانة التى ستحرم منها عائلتى..

وحسبت الحسبة، وقبلت أن أدفع مهرا..

دفعت عشرة جنيهات.. على قسطين..

وتزوجت..

ورددت إلى إخوتى وأمى الـ ١٥٠٠ سعر حرارى.. وتركت زوجتى تهيم بين الخيام، وتهذى بكلام غير مفهوم.. لم تكن زوجتى، بمعنى الزواج، ولو لدقيقة واحدة.

واطمأنت حياتى..

وأصبحت من ثراة المعسكر..

ثم فجأة.. وقبل أن تنقضى ثـلاثـة أشـهـر.. مـاتت المجنـونـة.. مـاتت زوجتى .. وضاع المهر الذى دفعتـه.. وتكلفت مصاريف الدفن.. ثم .. صدر قرار المحسنين بحرمان عائلتى من الاعانة..

أتدرى؟

إننى أذهب كل غروب إلى قبر زوجتى ..

وأبكى..



شفتاه

هل تريد أن تعرف قصتى معه؟!؟!

لقد رأيته أول مرة على شاطىء البحر بالاسكندرية.. كنت فى السابعة عشرة من عمرى، وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره.. كبيرا، قويا، طويلا، لفحته الشمس فبدا جسده كأنه مصنوع من النحاس.. وزحفت فوقه بعينى حتى التقيت بوجهه.. رزينا.. عيناه حادتان.. وشفتاه مقوستان كأنهما قوس مشدود ليطلق ابتسامة.. وتعلقت عيناى بهاتين الشفتين!

وفى اليوم التالى رأيته أيضا.. وقضيت ساعات أمسح فوقه بعينى ثم استقر بهما فوق شفتيه!

وفى اليوم الثالث رأيته يحادث فتاة.. وشعرت بالغيرة.. وكنت أعلم أن ليس من حقى أن أغار عليه.. إنه لا يعرفنى.. إنه حتى لم يرنى.. لم يلتفت إلىّ رغم ان ليس بينى وبينه سوى خطوات..

وقمت أسير أمامه لعلّى أشغله عن الفتاة التى يحادثها.. ولكنه لم يشغل عنها.. ولم يلتفت إلىّ .. وعدت إلى جلستى أنظر إلى شفتيه وهما تتحدثان إلى فتاة غيرى!!

ومرت الأيام.. وليس لى منه نصيب إلا النظر.. وشفتاه تطاردانني فى نهارى وليلى، فى صحوى ونومى!

وتجرأت..

أصبحت أتعمد أن أمر أمامه.. وتصيبنى رعشة فيخيل الىّ أن جسدى كله يتأرجح فوق ركبتى وأنا أمشى.. فأخجل من نفسى..

وتجرأت أكثر..

أصبحت ابتسم له.. ابتسامة صغيرة خجولة، هى كل ما استطاعت جرأتى أن تعيننى عليه..

ولكنه لم يلتفت الىّ .

لم يرنى..

إنه أحيانا مشغول فى حديث مع أصدقائه.. وأحيانا يلعب الراكت.. وأحيانا يلعب الطاولة.. وأحيانا يحادث هذه الفتاة الأخرى..

وعيناى متعلقتان بشفتيه..

ولم أكن استطيع أن أفعل شيئا أكثر من ذلك.. إنى خجولة وأنا محافظة.. وكنت أعلم أن البنات لهن طرق كثيرة فى الوصول إلى الشبان.. ولكنى لم أكن أستطيع أن ألجأ إلى هذه الطرق.. إنها فوق طاقتى.. بل إنى لم استطع حتى أن أحدث صديقتى عن اعجابى به، لعلها تعيننى على الوصول إليه..

إنى فقط أنظر إليه من بعيد، وأمر أمامه أحيانا لعله يلتفت إلىّ ويساعدنى.. ولكن .. لا شىء.. لا شىء يحدث أكثر من النظر إليه.. والتعلق بشفتيه!

وبدأ شعور غريب ينتابنى..

إنى أريد أن أقبل هاتين الشفتين..

أريد أن أقبلهما..

وخجلت من هذا الشعور.. أحسست بنفسى كأنى أصبحت فتاة خاطئة.. ولكن الرغبة تزداد تملكا منى.. فأدفن شفتى بين طيات الوسادة.. وأقبله..

وذهب فى الصباح إلى الشاطىء وبحثت عنه بعينى فلم أجده.. وانتظرته فلم يحضر..

وأحسست كأنه هجرنى..

أحسست كأن الشاطىء كله فراغ ممل..

ولم يحضر فى اليوم التالى..

لقد عاد إلى القاهرة..

تركنى وأنا لا أعرف إلا اسمه الأول الذى سمعت اصدقاءه ينادونه به.. عادل..

انقضى الصيف وأنا ساهمة.. وشفتاه مرسومتان فوق وسادتى.. ثم

رجعت إلى القاهرة.. وفرحت برجوعي، كأني سألقاه ينتظرني على المحطة.. كأني على موعد معه..

وأصبحت أسير في شوارع القاهرة وأنا ألتفت إلى كل سيارة تمر لعلّي أجده فيها.. وأنظر حولي كأن عيني ستقعان عليه.. على شفتيه.. وأصبحت افتح دفتر التليفون وأراجع كل الأسماء التي تبدأ باسم عادل.. ثم اختار واحدا منهم.. لعله هو.. وأهم ان أتصل به.. ثم أعدل.. رباط من العقل يشدني..

وشفتاه.. إني لا استطيع أن اتخلص من شفتيه..

و.. رأيته.. لمحته في شارع سليمان باشا يقود سيارته الصغيرة.. ووقفت مشدوهة، وقلبي يخفق.. يخفق بشدة.. يكاد يفر من بين ضلوعي.. وعدت إلى البيت.. ساهمة واجمة.. سعيدة.. كأني عدت من لقاء غرام..

ودفنت شفتي في وسادتي..

ثم عاد الصيف..

وعدت إلى الشاطيء انتظره..

انه لم يأت بعد..

ومضت أيام طويلة ولم يأت.. ثم جاء.. وفرحت.. خفق قلبي.. وغمرتني سعادة ونشوة.. وأخذت امسح فوق جسده بعيني، وازحف بهما حتى أصل إلى شفتيه.. لا تزال الابتسامة بينهما.. ولكنه يبدو أكبر من العام الماضي.. شعرات بيض خفيفة في فوديه، وخطوط فوق جبينه.. ولكني لا زلت لا استطيع أن أرفع عيني عنه..

وقمت أسير أمامه.. ولكنه مشغول.. يحادث أصدقاءه.. أو يلعب الراكت.. أو الطاولة.. أف .. لماذا لا ينظر إليّ .. إني جميلة.. إني سأعجبه.. يجب ان ينظر، ويساعدني.. يساعدني في الوصول إليه..

ولكنه مشغول..

مشغول عني..

وبكيت.. وأخفيت دموعي.. وعدت أنظر اليه..

وبقى يوم آخر على شاطيء البحر، ثم اختفى .. تركني.. وشفتاه

لا تفارقـان وسادتى.. ولكنه عاد.. عـاد يوم الخميس.. وعرفت أنـه قرر ألا يقضى على الشـاطىء أكثر من يـومى الخميس والجمعة من كل أسبـوع..
وأصبحت انتظـر كل يـوم خميس كـأنى على مـوعـد معـه.. كنت أذهب إلى الحلاق فى الصبـاح، وأرتدى أحـب فساتينى، وأذهب الى الشـاطىء.. إليـه وأقبل شفتيـــه.. قبـــلات كثيرة.. أقبلهما بعينـى.. وأهمس.. وحشتنى.. وحشتنى موت.. ولا شـىء أكثر..

وانتهى الصيف، وكل ما أخـذته منه هو اسمه الكـامل.. عادل رؤوف .. موظف بالسلك السياسى..

وعدت الى القاهـرة، وأمل كبير يضج فى صدرى: إنى على الأقل استطيع أن أحدثه فى التليفون..

ومضى أكثـر من شهر وأنـا أحاول ان استجمع شجـاعتى لأحدثـه فى التليفون..

صدقنى.. إنى لست كبقية البنات..

ثم أخيرا حادثته..

وسمعت صوته..

لابد أن هذا هو صوته.. إن قلبى لا يخطىء

وقلت وصوتى يرتعش:

— أنا واحدة..

وقال وهو يضحك ضحكة كسولة:

— صحيح!!

وضحكت معه.. خيل إلىّ أنى بين ذراعيه.. واضحك..

ووجـدت نفسى أحـادثـه.. لم أكن أظن أنى استطيع أن أقـول كل هـذا الكلام.. رغم انه لا يعرفنى!

وقلت له فى حياء :

— اقدر اكلمك فى التليفون تانى..

قال وأنا أرى شفتيه يطلقان ابتسامتهما :

— تقدرى.. بس لازم تكلمينى فى لندن..

وشهقت:

— أنت مسافر؟!

قال فى هدوء:

— الطيارة حاتقوم بعد ساعتين..

قلت فى لهفة:

— وراجع إمتى..

قال وهو يضحك ضحكة صغيرة كأنه يسخر من القدر:

— بعد خمس سنين..

ووقعت سماعة التليفون من يدى كأنما أغمى عليها..

هل نسيته..

لا..

إنه حبى الأول والوحيد، فكيف انساه.. وشفتاه مرتسمتان فوق وسادتى وصوته يملأ أذنى..

وتزوجت وأنا فى التاسعة عشرة..

وذهبت لزوجى، وخيالى مع حبيبى حتى فى حفلة زفاف وأنا جالسة فى الكوشة، والعوالم يقرعن الدفوف من حولى، كنت أرى حبيبى فى خيالى.. وأرى شفتيه.. وأغمض عينى لأقنع نفسى أنى أزف إليه..

وعندما قبلنى زوجى لأول مرة أغمضت عينى لأتخيل أنها قبلة حبيبى.. لا إنها ليست قبلة حبيبى.. وأدفن رأسى فى الوسادة أبحث عن شفتيه.. ثم .. إنى لا أطيق ان يقبلنى زوجى إلا إذا أطفأ النور..

وأصبحت أعد الشهور والسنين.. مر عام.. والثانى.. والثالث.. والرابع.. والخامس.. لا بد أنه عاد.. لقد قال إنه سيعود بعد خمس سنوات..

هل اتصل به فى التليفون.

لا.. لا.. مستحيل.. إنى امرأة متزوجة.. ويكفينى أنى أثمت فى حق زوجى بخيالى، ولن آثم فى حقه أكثر..

وصدقنى.. إنى من هذا النوع من النساء.. النوع الذى يطلق خياله، وتقيده الحقيقة..

وأصبحت أسير فى شوارع القاهرة وأنا أنظر إلى السيارات لعلى اصطدم به.. ثم أسافر الى الاسكندرية وأجلس فى نفس المكان من الشاطىء.. لعله يأتى..

ولكنه لم يأت..

وهو فى خيالى.. وشفتاه فوق وسادتى.. وصوته يملأ أذنى..

ومرت إحدى عشرة سنة..

ورأيته..

رأيته فى السينما.. كان يجلس فى بنوار.. كبيرا، قويا، طويلا، وشفتاه مقوستان.. كأنهما قوس مشدود ليطلق ابتسامة..

إنه حبيبى..

وحبيبى الآن فى السادسة والأربعين من عمره.. شعره أبيض.. ولكنه لا يزال حبيبى..

وتعلقت عيناى بشفتيه، وانطلقت منى ابتسامة تسعى اليه.. وهمست.. الحمد لله على السلامة..

ثم وجدت نفسى أميل على زوجى، وأتعلق فى ذراعه، كأنى احتمى به من خيالى..

ثم.. عدت أزحف اليه بعينى..

ان معه فى البنوار سيدة.. وصديقا.. هل هذه السيدة زوجته أم زوجة صديقه..

واعتبرتها زوجته.. لا أدرى لماذا.. واحسست بالغيرة.. غيرة مرة قاسية.. كأنه خاننى بزواجه.. كأنه خدعنى .. كأنه..

إنى مجنونة..

ولكنى أعيش فى هذا الجنون.. وهو جنون لا يبدو على وجهى ولا على تصرفاتى.. ولكنى لا شك مجنونة.. مجنونة ان أحب هذا الحب.

ولكنى لا استطيع ان اتخلص من جنونى..

لا أريد أن اتخلص من جنونى..

لا أريد أن اتخلص منه..

إنى أعيش به..

ومضت خمسة أعوام..

ومات زوجي؟

وبكيت عليـه.. بكيت عليـه كثيرا.. ولكن خيالى كـان لا يتخلى عنى اثنـاء بكـائى.. إنى الآن حرة.. إنى استطيع أن اتصل بحبيبى.. وكـان خيالى هـذا يراودنى.. وأنـا فى ليالى المأتم، فأخجل من نفسى.. واشتـد فى بكائى.. كأنى استسمح زوجى.. وانقضت أيام البكاء..

ومضت شـهـور طويلـة وأنـا أروح وأغـدو أمام التليفـون.. ثم تجرأت ورفعت السماعة.. وطلبت رقم حبيبى..

— البيه موجود؟!

ورد الخادم كأنه يستنكر السؤال:

— البيه فى باريس..

وشـهقت..

ثم ترددت وأنا أسأل فى خجل:

— والهانم..

وقال الخادم وهو أشد عجبا:

— ما فيش هانم هنا.. البيه مالوش هانم!

وفرحت..

أحسست أنه لا يزال مخلصا لى..

وعشت مخلصة له.. رفضت ان أتزوج.

ومر عـامان.. عامـان ليس لى فيهما إلا خيالى.. وشفتاه فـوق وسادتى، وصوته يملأ أذنى، وشعره الأبيض يطوف حولى كأجنحة الملائكة..

وكنت فى زيـارة إحـدى صـديقـاتـى فى مستشفى الـدكتـور الكـاتب.. وسمعت من الحاضرات أن عـادل رؤوف يقيم فى الغـرفـة المجـاورة وأنـه أجرى عملية جراحية..

ولا أدرى ماذا حدث لى..

قمت فجأة، واتجهت إلى غرفة عادل ودخلت إليه..

كـان وحده.. راقـدا فى سريـره.. مغمض العينين.. ولم يحس بدخـولى.. وقفت بجانب فراشة مشدوهــة أنظر إليه كأنى أشرب من وجهه.. ثم تعلقت عيناى بشفتيه.. ثم فجأة .. انحنيت وألقيت شفتىّ فوق شفتيه.. وقبلته..

بعد هذا العمر الطويل..

ولا أريد أن أرفع شفتى عن شفتيه..

وفتح عينيه فى هدوء وإعياء، ونظر إلىّ فى تساؤل مريح، وشفتاه تطلقان على ابتسامته الحلوة..

وامتلأت بالخجل، وأرخيت عينى عنه وقلت هامسة، فى سذاجة :

— أنا فايزة ؟!

ولم يردد ..

ووقفت مـرتبكة.. ثم استدرت لأنصرف.. ولكنــه أمسك بيدى، وشــدنى إليه ، وقال:

— أنا حاسس إننا نعرف بعض..

ثم اتسعت عيناه، وشب بقامته فى فراشه، وقال فى فرح :

— مؤكد إننا نعرف بعض..

وسقطت جالسة على حـافة فراشه.. وأنـا اتنهد .. وقلبى يخفق .. يدق.. يكاد يفر من بين ضلوعى..

لقد وصلت إليه..

ورويت له قصتى فى حديث لم ينته .. ولن ينتهى..

لقد تزوجنا..

ولعلك الآن لا تلومنى لأنى تزوجت رجلا عجوزا..





العفـــاريت

أنـا دكتـور فى الـذرة، وعضـو فى المجلس الأعلى للعلـوم، وأستـاذ فى الجامعـة.. وأحمل لقب : عـالم .. وأنـا واحـد من اثنين فى الشرق الأوسط، تعترف المعـاهد العلميـة فى أمريكـا وروسيا بالبحوث التى يضعانها..

ورغم ذلك فهنـاك سـؤال بسيط يتردد على لسان كل طفل، ولا استطيع أن أجـد له جـوابا فى خزانة العلم والمعرفة التى أحملها فى رأسى.

السؤال هو: هل توجد عفاريت ؟

وقد حاولت كثيرا أن أجيب على هذا السؤال.. قضيت عمرى وأنا أحاول، الاجابـة عليه. ودرست علوم الفلك، وعلوم الـروح، وعلوم الميتافيزيكـا وما وراء الطبيعـة، لعلى استطيع أن أجيب على السـؤال المحير، بل ربما كـان الدافع الأول لتخصصى فى علوم الذرة هو الاجابة على هذا السؤال..

ورغم ذلك فإنى لم أعثر على الجواب ..

وكل من يسألنى : هل تـوجـد عفاريت ؟ لا أرد عليـه، ولا أنـاقش، لأنى أخشى أن يكشف النقاش عـن حيرتى ، فأكتفى بأن أهز كتفى، وأقـول بلا مبالاة : بلاش كلام فاضى.. عفاريت إيه.. ما تسأل فى حاجة مهمة يا أخى..

وهذا الكلام الفاضى، هو المشكلة التى صاحبتنى طول حياتى..

مشكلة بـدأت عندما زرت قريتنـا لآخر مرة ، وأنا صبى فى الثـامنة من عمرى..

إنها قـرية صغيرة، اسمهـا « كفر ممـونـة » ناحيـة شبرا اليمن، مركـز زفتى.. وكان جـد والدى هو آخر جيل فى العـائلة أقام فى القـرية.. ثم أرسل ابنه ــ أى جدى ــ ليتعلم فى الأزهر، فأقام فى القـاهرة وتـزوج فيها.. ولكن صلته بالقرية كانت لا تزال قائمة، فهو يزور أهلها كل شهر تقريبا، وأهلها يفدون إلى بيتنا فى القـاهرة ويقيمون فيه ريثما يتمـون الطواف على أضرحة أوليـاء الله.. ثم فى عهـد والـدى بـدأت الخيوط التـى تصلنا بـالقـريـة تبلى

وتتمزق.. ولكنا كنا لا نزال نذكرها فى أحاديثنا.. وكانت تأتينا منها صفائح السمن، والبيض، والفطير المشلتت، والبنات اللاتى يخدمن فى البيت.. وفى عهدى أنا.. عندما كبرت وأصبحت رجلا.. انقطعت صلتنا بالقرية تماما، ولم يعد بينى وبينها إلا إيجار ثلاثة أفدنة ونصف، هى كل ما نملكه من أرضها، ويأتى الشيخ عبدالصمد ليسلمنى قيمة الايجار مرتين فى العام، وغالباً لا أجد من وقتى متسعا لمقابلته، فيقابله سكرتيرى نيابة عنى!

ورغم أن آخر مرة زرت فيها قريتنا، كنت فى الثامنة من عمرى ـ أى منذ ثلاثين عاما ـ فإنى لا زلت أذكر هذه الزيارة.. ولازلت كلما تذكرت قريتنا، أحس بشىء يشد قلبى كأن عروقى كلما تمتد إلى هناك، وتنبت من هناك.. وأحس فى الوقت نفسه بحزن عميق وحسرة كأنى تذكرت والدتى التى ماتت، وتركتنى وحيدا.. ضائعا..

وكلما تذكرت قريتنا تذكرت العفاريت..

لقد ذهبت إلى هناك مع ابن عمتى الذى يكبرنى بعشر سنوات.. وكنت صبيا منطويا ضعيفا يجرعوننى كل صباح ملعقة كبيرة من زيت السمك.. وكان ابن عمتى فتى قويا نشيطا، وكان رئيس فرقة الكشافة فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وكان فى حزامه دائما خنجر صغير..

وكنت معجبا بابن عمتى.. كنت اعتبره بطلا، وأسير دائماً وراءه، وأحاول أن أقلده.. وكنت أنظر إلى رداء فريق الكشافة الذى يرتديه، والمنديل الأخضر الذى يلفه حول عنقه، والصفارة التى يضعها فى جيبه ويلف حبلها الأبيض المجدول حول كتفه، والشراريب الحمراء التى تتدلى من أعلى جوربه.. كنت أنظر إليه كما أنظر الآن إلى القنبلة الذرية.. كنت أعتقد أن ابن عمتى يستطيع بهذا الخنجر أن يقتل عشرات اللصوص، وأن يذبح الأسود، وأن يطرد الانجليز من مصر..

وكنا ـ فى القرية ـ نجتمع كل مساء فى فناء الدار.. سيدات العائلة والبنات والأطفال والشبان.. ونتحدث.. والحديث دائما ينتهى الى ذكر العفاريت.. الجنية الحسناء التى تظهر فوق مياه النيل فى الليالى المقمرة، وتأخذ فى تسريح شعرها، وتغنى بصوت لا تستطيع أذنى رجل أن تقاومه،

حتى إذا نسى الرجل نفسه وحاول أن يقترب منها، شدته معها إلى قاع النيل.. وتزوجته..

ولكن معظم الحديث كان يدور حول عفريت معين يقيم فى القرية ويتخذ محله المختار بجوار المقابر، ولا يزاول نشاطه إلا فى الليل.. فإذا ما مر به طفل حمله من ساقيه وفسخه إلى نصفين.. وإذا مر به رجل ركب فوق أكتافه وأمره أن يظل يجرى به إلى نهاية الليل. وكانت أم إبراهيم كبيرة عجائز العائلة تروى قصصا عجيبة عن هذا العفريت.. وتقسم أنه ركب مرة فوق كتفى الشيخ عوضين .. وإنه قتل ابن بهية الدسوقى منذ خمس سنوات.. وإن حميده العلاف رأى العفريت فى الأسبوع الماضى عندما كان عائدا من شبرا اليمن، وإنه ظل يجرى، ويقرأ آية الكرسى، والعفريت يجرى وراءه، إلى أن وصل إلى القرية ودخل البيت وأغلق الباب عليه.. ولولا آية الكرسى لاستطاع العفريت أن يلحق به ويركب فوق أكتافه.. وتقسم أم إبراهيم أن شيخ الخفر سليمان قدم منذ ثلاثين عاما طلبا إلى المأمور لاعفائه وإعفاء جميع الخفراء من حراسة المنطقة التى تقع حول المقابر، لأن العفريت كان يقضى الليل متنقلا فوق أكتافهم.. وإن المأمور رفض أيامها طلب سليمان، وعزله من شياخة الخفر.. وعين محمد السنوسى بدلا عنه، ولكن محمد السنوسى ما لبث أن استقال بعد أن ركبه العفريت.. فما كان من المأمور إلا أن أرسل قوة من عساكر المديرية على رأسها ضابط.. فإذا بالعفريت يركب الضابط ويظل يجرى به حتى آخر الليل.. وفر العساكر.. وحملوا الضابط فى الصباح إلى مستشفى المجانين. ومن يومها تقرر أن تترك منطقة المقابر بلا حراسة..

وكنت استمع إلى هذا الكلام وارتعد، وانكمش فى نفسى حتى أحس أنى لن استطيع أن أفرد بعدها أطرافى.. كنت أخاف.. ويلازمنى الخوف طول الليل.. فانزل من سريرى الذى أنام فيه أنا وطفلين من أبناء العائلة، وأجرى لأنام بجوار ابن عمتى.. فقد كنت أعلم أنه يحتفظ بخنجره تحت الوسادة التى ينام عليها..

وكان ابن عمتى يستمع إلى هذه الأحاديث، ويسخر منها، ويسخر من

أم إبـراهيم.. ويقول لهـا ضاحكـا « يـا حاجـة بلاش تخريف.. ده كـلام فاضى »!

وتـرد أم ابـراهيم قـائلة : « يـابنى استغفـر الله .. ده الجن مـذكـور فى القرآن ».

وأنا خائف :. أصدق أم ابـراهيم وأصدق القرآن.. ولا استطيع أن أكذب ابن عمتى.. البطل الذى أؤمن به وأسير وراءه..

وفى إحـدى الليالى، وكنت نـائما تراودنى الأحـلام المفزعـة التى تتبعنى كلما سمعت حـديـث العفـاريت.. أحسست بيـد تهزنى بقـوة، فصحـوت مفزوعا وصرخـة هائلة محتبسة فى حلقى.. ورأيت أمامى ابن عمتى مـرتديا زى الكشافـة كامـلا، وحبل الصفارة يلتف حـول كتفه والخنجـر معلقا فى حزامه ، وفى يده بطارية صغيرة..

وقال ابن عمتى هامسا حتى لا يوقظ من حولى :

— قوم البس جزمتك !

قلت وأنا لا أزال أعانى أزمة الفزع :

— حانروح فين يا حسين.. حانسافر ؟

قال وهو يتعجلنى :

— لا .. قوم بس البس جزمتك !

وقد قلت لكم إنى كنت دائما اسير وراء ابن عمتى.. أقلده.. وأأتمر بأمره .. فقمت ألبس حذائى .. وأنا أحبس اعتراضى، حتى لا يعتقد أنى خائف..

ثم خرجنـا من البيت على أطراف أصابعنا.. وأنـا أسير بجانب حسين فى خطوات مهتـزة مرتديا الجلبـاب الذى كنت نائما به .. وهـو يسير بخطوات قوية مرتديا زيه الرسمى، ويتلفت حوله كأنه يبحث عن شىء يصطاده..

ولا أدرى كم كانت السـاعة.. ربما كانت الواحـدة بعد منتصف الليل أو أكثـر.. والظـلام حالك ثقيل حتـى تكاد تلمسـه بيـديك.. والقـرية نـائمـة صامتـة.. ووقع أقدامنا فـوق التراب له صوت كأنـه دبيب حيوان ضخم.. وأعـواد الذرة تتمايل وتصـدر عنها وشـوشة هـائلة كأنها فحيح مـلايين الثعابين.

وقلت لابن عمتى وأنا أسرع الخطى لأكون دائما بجانبه ملتصقا به :

— مش تقول لى حانروح فين يا حسين ؟

قال فى بساطة:

— حانروح نشوف العفريت !

ووقفت عن السير مرة واحدة.. وارتعدت ركبتاى.. كلى ارتعش.. وقلت من بين أسنانى المصطكة:

— إيه .. إيه .. إيه.

ونظر إلى ابن عمتى كأنه يحتقرنى.. وقال فى صوت آمر، كأنه ضابط تركى من ضباط الجيش القدامى:

— أنت خايف ؟

قلت وأنا انظر إليه كأنى استغيث به :

— لأ .. مش خايف .. مش خايف .. بلاش يا حسين.. والنبى بلاش.

قال فى لهجة الضابط التركى :

— خليك راجل .. احنا لازم نثبت لأهل البلد أن كل الكلام اللى بيقولوه عن العفاريت.. كلام فاضى.. خرافات..

ثم خطا إلى الامام فى خطوات عسكرية، كأنه كان واثقا من أنى لن أستطيع أن أعود إلى البيت وحدى..

ولحقت به والدموع تتجمع فى عينى ، وأنا أحاول أن أحبسها.. وسرت بجانبه أحاول أن استمد منه بعض شجاعته.. وأحاول أن أخطو مثل خطواته العسكرية.. وان أتلفت حولى مثل لفتاته القوية.. ولكنى كلى أرتعد.. وقلبى يرفرف كالحمامة الذبيحة.. والدموع المتجمعة تحت جفونى، تؤلمنى كأنها حبات الحصى..

ولم نتكلم..

والليل الكثيف.. والصمت الثقيل.. ووشوشة أعواد الذرة كأنها فحيح ملايين الثعابين..

ووصلنا إلى منطقة المقابر.. ولم أعد استطيع السير.. وشخط فى ابن عمتى :

— اتجدعن أمال .. خليك راجل !

وامسكت بكم قميصه، وسرت بجانبه، كأنى ازحف ، وهو يشدنى.. إنى خائف.. خائف.. والظلام يملأ عينى.. وأعواد الذرة سوداء.. والفحيح يملأ صدرى..

ووصلنا إلى المقابر نفسها..

إنى لم أعد استطيع.. أحس أنى سأنكفىء على وجهى.. أريد أن أعود.. أريد أن أعود .. وحياة النبى يا حسين..

وحسين يجرنى من ذراعى وراءه ..

ثم أضاء بطاريته وسلطها على المقابر، وقال بلهجة ساخرة:

— ولا عفاريت ، ولا حاجة.

ثم تقدم ناحية قبر من القبور ، وجلس على الأرض مستندا بظهره إلى حائط القبر، والبطارية فى يده، والخنجر فى يده الأخرى .. وجذبنى معه قائلا :

— أقعد .. لغاية ما يشرف سى العفريت !

وجلست ورعشة كالحمى تسرى فى أوصالى.. وأطفأ حسين نور البطارية ولاحت القبور أمام عينى كالأشباح الجالسة.. ووجدت عينى تتركزان على قبر بالذات.. ولا استطيع أن ارفعهما عنه .. ثم رأيت حائط القبر ينشق.. ويخرج منه هيكل من العظم.. يفتح فكيه ويقهقه.. وأنا لا استطيع أن أصرخ.. ولا أن أبكى .. ولا أن التفت بعينى ناحية أخرى .. كل شىء فىّ متجمد.. الخوف نفسه خائف.. لايستطيع أن يعبر عن نفسه.. لا يستطيع أن ينطلق.. وفجأة أضاء نور ساطع.. وشهقت.. شهقة حادة.. أحسست معها أن روحى زهقت.. وسمعت ابن عمتى يقول لى:

— ما تخافش.. ده أنا ولعت البطارية..

وبدأ ابن عمتى يتكلم.. يتكلم كثيرا.. وأنا لا اسمع كلامه.. انى خائف.. خائف إلى حد الموت.. وارتفع جلبابى من فوق ساقى.. ربما كان الهواء قد طيره.. ولكنى أحسست كأن ذراعى العفريت قد رفعته، وأنه يمد يديه ليمسكنى من ساقى، ويفسخنى.. وحاولت أن أصرخ.. فلم استطع..

حاولت أن أمد يدى لأمسك بابن عمتى.. ولم استطع أن أحرك يدى..

وتنبهت إلى أن ابن عمتى قد كف عن الكلام.. فقلت بما بقى من أنفاسى المرتعشة :

— حسين ..

وسمعته يقول وكأن صوته يرتعش مثل صوتى :

— البطارية ما بتولعش..

ثم سمعته يردد :

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم.. الله لا إله إلا هو الحى ..

وأنا أرى شيئا فى الظلام يتحرك.. ان الظلام نفسه يتحرك .. ثم فجأة.. انطلقت صرخة حادة.

وجذبتنى يد جذبة قوية .. وأخذت أجرى .. وحسين يجرى أمامى .. وهو يردد :

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم.. لا تأخذه سنة ولا نوم.. الله لا إله إلا هو الحى..

ووصلنا إلى البيت..

وسقطت فى الفناء مغشيا علىّ.. وجرنى حسين ، ووضعنى فى فراشى، دون أن يحس بنا أحد..

وفى اليوم التالى.. كنت مريضا.. وظللت أكثر من اسبوعين مريضا..

ولم نرو ما حدث لأحد.. لا أنا ولا حسين.. بل إن حسيناً لم يذكر شيئا عن خنجره الذى عاد إلى البيت بدونه.. ولكنى فوجئت عندما عادت أم ابراهيم تروى لنا قصص العفاريت، بحسين يقول لها :

— يا حاجة بلاش تخريف .. ده كلام فاضى !!

***

هذا ما حدث لى وأنا فى الثامنة من عمرى.. ومن يومها وأنا اتساءل : هل توجد عفاريت ؟

وقد قرأت كل الكتب التى يمكن أن تعيننى على الوصول إلى الجواب،

ورغم ذلك فـلا زلت حائرا.. وكلما اقترب عقلى من الجواب ، ثـارت فى نفسى حادثة القرية التى وقعت لى وأنا فى الثامنة من عمرى.. ووجدت نفسى أعود حائرا كما كنت..

وأنا لا أجزم بأنى قد رأيت العفريت فى صغرى ، كل ما اجزم به هو هذه الأحاسيس التى ثارت فى نفسى يوم ذهبنا نبحث عن العفاريت..

والعالم الباحث كى يصل إلى الحقيقة، يجب أن يتجرد من الأحاسيس. يجب أن يكون عقلا خالصا.. عقلا فقط.. ولكن العلماء ليسوا سوى أفراد من الناس.. ليسوا سوى ، انسان.. والله لا يريد الانسان أن يصل إلى الحقيقة.. إلى كل الحقيقة.. فلم يخلق له عقله فحسب، بل خلق معه الأحاسيس التى تضلل العقل..

هل فهمتمونى ؟





سأكتفي بالحب

تسألني لماذا فسخت خطبتي؟

السبب بسيط، قد يبدو من فرط بساطته غريبا.. ولكنه كان كافيا لأفسخ خطبتي، واخنق حبي، واهدم بيدي كل أحلامي.

واسمع قصتي من أولها.. ولا تنتظر أن تسمع شيئا مثيرا.. فليس في قصتي حوادث، ولا مأساة، ولا فصول.. انها فصل واحد هادىء، يسير في رفق كمياه القناة الصغيرة التي تشق أرض الحقل.. وينتهي حيث تنتهي مياه القناة.. تشربها الأرض ولا يبقى بعدها إلا الجفاف.

لقد التقيت بسميحة بين مكاتب الشركة التي أعمل بها.. جاءت لتزور بعض صديقاتها.. وقدموني إليها.. وتحدثنا طويلا.. وكان حديثها منطلقا ممتعا خفيفا، ليس فيه تكلف ولا نكات مفتعلة.. وكنت أيامها خارجا من مأساة حب فاشل.. وكنت أبحث عن السلوى.. عن شيء اداوي به جرح قلبي، ويشرح صدري، ويعيد إلىّ ثقتي بنفسي.. والرجل في مثل هذه الظروف يصبح ضعيف المقاومة.. يصبح وكأنه في دور النقاهة، معرض لالتقاط المرض من جديد.

ورغم ذلك فإني لم أحب سميحة من النظرة الأولى، رغم حديثها المنطلق الممتع.. ولكني اعجبت بها.. كانت صغيرة.. صغيرة في عمرها.. وصغيرة في حجمها.. وصغيرة في ملامح وجهها.. يخيل إليك انك تستطيع أن تحملها العمر كله، دون أن تتعب.. وكانت أيامها لا تزال طالبة في كلية الآداب..

وتمنيت أن تأتي كل يوم إلى الشركة، لأراها، واسمع حديثها المنطلق الخفيف.. وقد جاءت.. جاءت كثيرا.. واتصلت أحاديثنا.. وبدأت تمنحني من اهتمامها أكثر مما تمنح صديقاتها اللاتي جاءت لزيارتهن.

وفي يوم، تركتها تخرج من الشركة، وخرجت وراءها.. لحقت بها في الشارع، واستوقفتها، وقلت لها في لهجة جدية كأني أعرض عليها بوليصة تأمين على الحياة:

— هل لك علاقات عاطفية ؟

وفوجئت بالسؤال، ولكن طبيعتها البسيطة تغلبت على دهشتها، واجابت وهى تبتسم :

— لا .. ليس لى علاقات عاطفية !

قلت وأنا لا زلت محتفظا بلهجتى الجدية :

— هل تمانعين فى أن تكون أصدقاء ؟

واتسعت ابتسامتها كأنها فرحة بهذا الأسلوب الجديد فى التقدم لها، وقالت :

— لا .. لا امانع !

قلت :

— ارجو أن تفهمينى .. فأنا لا أحبك، ولا اعتقد انك تحبيننى .. وكل ما أطلبه منك أن نبدأ صداقة، قد تنتهى إلى حب، وقد تنتهى إلى لا شىء.

قالت :

— انك خائف.. لابد أن فى حياتك صدمة عاطفية.. حب فاشل !

قلت وأنا مبهور بذكائها :

— ما ادراك اننى خائف.. وما ادراك أن فى حياتى حبا فاشلا .

قالت :

— لأن هذا التحذير عن مصير صداقتنا، هو تحذير لنفسك.. حتى لا تخدع فى الحب مرة ثانية!

ولم أخف عليها.. اعترفت لها بصدق احساسها.. ورويت قصة حبى الفاشل، بل رويت لها منذ اليوم الأول قصة حياتى كلها، حتى اسم أمى ذكرته لها.

وأصبحنا أصدقاء.

مجرد أصدقاء.

نلتقى مرة أو مرتين فى الأسبوع.. ونذهب إلى السينما، أو نجلس فى كازينو الشجرة.. ونتحدث .. ولا شىء أكثر من هذا.

ولكن ..

بمرور الأيام بدأت أشعر بالحاجة إليها.. بدأت انتظر موعدها.. واشتاق إليها.. وأعد نفسى للقائها.. ولم أعد احتاج إليها لأداوى بها جرح قلبى القديم، فقد اندمل الجرح.. ونسيت الفشل.. وأصبحت احتاج إليها لذاتها.. بدأت أحبها وأحسست انها تحبنى هى الأخرى.. انها تترك يدها فى يدى.. وتضم عينى بعينيها.. وابتسامتها تشرب من ابتسامتى.

وسألتها مرة :

— ألم يكن فى حياتك حب .. ألم تكن لك علاقة سابقة بأحد من الشبان؟

قالت :

— أبدا.

قلت :

— لا تخفى علىّ .. فأنـا كما تعلمين لا أحبك، وأنت لا تحبيننى.. اننا أصدقاء، ولن يؤثر فى صداقتنا أن تكون قد مرت بك تجربة حب.

قالت :

— لا.. لم تمر بى تجربة حب!!

قلت :

— مستحيل .. انك الآن فى العشرين من عمرك .. ولابد أن تجربة مرت بك.. ولو تجربة قبلة.

قالت :

— لا.. ولا حتى تجربة قبلة.. صدقنى!!

وصدقتها.

وأحببتها.

لم أعد أخفى عن نفسى، ولا عنها، انى أحبها.

وأحبتنى.

وانطلقنا فى أرض الحب.

انطلقنا بكل ما فى شبابنا من قدرة على الانطلاق.. كانت تخرج كل يوم من الجامعة، وتنتظرنى على ناصية الشارع الذى تقع فيه الشركة.. ثم نذهب سويا لنتناول الغداء.. قطع من الساندويتش فى محل البامبو.. ثم

نذهب إلى السينما.. أو إلى حـديقة الاندلس.. أو إلى كازينـو الشجرة.. ويدى دائما فى يـدهـا.. وعيناى فى عينيهـا.. وابتسـامتى تشرب من ابتسـامتهـا.. وحـديثنـا لا ينقطع.. ونظل سويـا حتى السـاعـة الخامسة، وأحيـانـا إلى السابعة.. ثم تعود إلى بيتها.. وبمجرد أن ينام أهلها تتصل بى فى التليفون، ونظل نتحادث حتى الثالثـة أو الرابعة صباحا.. مـن أين كنا نأتى بكل هذا الكلام؟ لا أدرى!

وبدأت فكرة الـزواج تراودنى.. ولكنى كتمتها عنهـا.. وأخذت أمهد لها.. لفكـرة الزواج.. فـدعـوتها إلى بيتى لتتعرف إلى أمـى وإلى اخوتى البنـات.. وأحبتهـا أمـى، وأصبحت صـديقـة لإخـوتى.. وبـدأت تـزورنـا كثيرا.. وبلا موعـد.. ورأتنى كما أنا فى بيتى.. رأتنى بالبيجامـا.. وأنا أحلق ذقنى.. وأنا أشخط فى خـادمتنا بهية.. وخيل إلى أن بيتنا قد ازداد سعادة بها.. اننا نمرح دائما.. ونضحك كثيرا.. والدنيا من حولنا حلوة.

وجاءت مـرة إلى البيت، ولم يكن فيه احد إلا أنا.. خـرجت أمى واخوتى.. وربما تعتقـد انـى تعمـدت أن أبقى فى البيت وحـدى.. لايهم.. اعتقـد ما تعتقده.. المهم اننا وجدنا أنفسنـا وحيدين فى البيت.. وحاولنا أن نتحدث كعادتنـا.. ولكننا شعرنـا ـ نحن الاثنين ـ اننا فى حاجـة إلى شىء أكثر من الحديث.. شىء انتظرناه طويلا.

وسكت الحديث بيننا.. واقتربت عيوننا.. و.. ومددت ذراعى إليها، كأنى ادعوها إلى الجنة.. ثم .. ثم قبلتها.. بكل شبابى.. بكل حبى.. بكل انطلاقى.

وفجأة، رفعت شفتى عن شفتيها.

لا ..

ليست هـذه قبلة فتاة لم تـذق القُبَل من قبل. انها قبلة مـن شفاه خبيرة بالقبـلات.. إن البنات مغفلات.. انهن لا يعلمن أن الشـاب يستطيع أن يميز بين الشفاه البكر، والشفاه المجربة ، من أول قبلة.

وصرخت فيها :

ـــ من علمك التقبيل ؟

قالت فى ارتباك :

— لا احد.. لم يقبلنى احد قبلك!

قلت صارخا :

— كاذبة.. إن قبلتك قبلة فتاة مجربة!

قالت كأنها تتوسل إلىّ :

— ربما كان حبى، قد اطلق شفتى!

قلت :

— هذا كلام.. لقد خدعتينى!

وغضبت.

وتركت البيت غاضبة.

ولكنى ما لبثت أن هدأت، وبدأت ألتمس لها الاعذار.. ماذا لو كان قد قبلها احد قبلى.. لماذا يبيح الشاب لنفسه حق التجربة ولايبيح نفس الحق للبنت.. انها شريفة.. وقد مضى على حبنا أكثر من سبعة شهور تأكدت خلالها انها شريفة، وان ليس فى حياتها احد غيرى.. ولن يقلل من شرفها أن يكون فى حياتها أحد قبلى.

وعدت إليها ..

وبدأنا الحب من جديد.. أكثر انطلاقا.. وأكثر جرأة.. لم تعد تكفينا السينما، أو كازينو الشجرة.. ولم يعد يكفينا الحديث.. اننا نريد القبلات.. ومزيدا من القبلات.. ونحن نلتقى كل يوم.. ونتحدث فى التليفون حتى الصباح.

ولم يعد هناك مجال للتردد.. لم أعد احتمل التردد.

ذهبت إلى أهلها.. وخطبتها.

ثم..

ثم بدأ كل شيء يتغير.

لقد دعونى فى اليوم التالى لاعلان الخطوبة، للغداء عندهم.. وجلست معها بين ابيها وأمها واخوتها.. كأنى جالس أمام محكمة.. والأسئلة سخيفة، والاجوبة أسخف منها.. وحديث ممزق، ونكات مفتعلة.

واحتملت كل هذا، وهمست فى أذن سميحة :

— لنذهب إلى السينما .. بعد الغداء.

وإذا بسميحة تصيح :

— ماما، محمود يدعونى إلى السينما ؟

وابتسمت الأم ابتسامة كبيرة وقالت :

— وماله ياحبيبتى.. ويذهب معكما اخوك!

وذهبنا إلى السينما ومعنا اخوها.. ويدى ليست فى يدها.. وعيناى لا تضمان عينيها.. وابتسامتى لا تشرب من ابتسامتها.. ولا قبلات !

وفى اليوم التالى لم تنتظرنى على ناصية الشارع الذى يقع فيه مقر الشركة.. واتصلت بها فى التليفون ملهوفا ، وقد اعتقدت انها مريضة.. وردت علىّ.. انها ليست مريضة.. ولكنها تنتظرنى فى البيت لتناول الشاى.

وذهبت لتناول الشاى.. وجلست معها أمام المحكمة.. الأسئلة السخيفة.. والاجوبة السخيفة.. والنكات المفتعلة.. والحركات المتكلفة.

ولا اطيل عليك .

أصبحت عريسا.

بكل ما يحيط بكلمة عريس من تكلف زائف، ومن رسميات، وتقاليد فارغة، لم أعد أرى سميحة وحدها.. اذهب إليها لأجلس معها بصحبة أهلها.. وتأتى إلى بيتنا ومعها أمها.. ولم أعد أقبلها إلا خلسة.. كلما سمح أهلها وتعمدوا أن يتركونا وحدنا بضع لحظات.. ولم أعد اخرج معها إلا بصحبة احد من أهلها.. ولم يعد حديثنا التليفونى يدوم حتى الصباح.. كأنما إعلان خطوبتنا قد اغنى سميحة عن الحب.. كأنها ضمنت انى أصبحت فى يدها، فلم تعد تبذل مجهودا للاحتفاظ بى.

وكان هذا فوق منطقي.

لم أستطع أن أقنع نفسى بأن حقي على سميحة قبل الخطوبة، يزيد على حقى عليها بعد الخطوبة.

لم أستطع أن أقنع نفسى أن الخطوبة لها تقاليد، ولها مظاهر، تختلف عن تقاليد ومظاهر الحب.

لم أستطع أن أقنع نفسى بأن الخطوبة حرمان، ورسميات، وتقاليد سخيفة.. وقضبان من حديد يضعها الأهل بينى وبين خطيبتى.

ولم أعد احتمل.

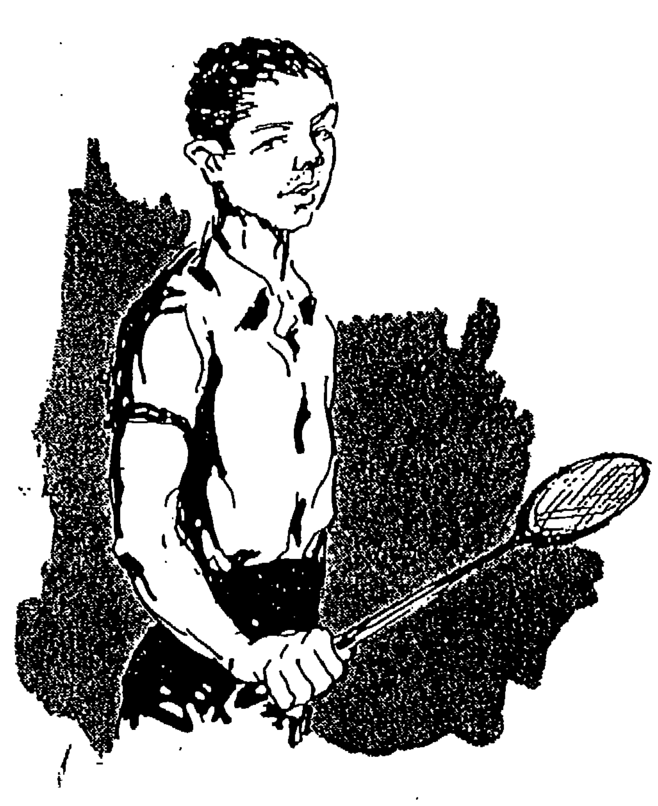
ارسلت إلى سميحة انـذارا مدتـه أسبوع واحد.. ان لم نعـد كما كنا.. إن لم نعد إلى انطلاقنا ومظاهر حبنا خلال هذا الأسبوع، فإن على سميحة وأم سميحة وأبى سميحة، ان يتحملوا نتيجة ما يحدث.

ولم تستسلم سميحة إلى الانذار.. ربما لم تصدقه.

وبكل بساطة.. فسخت الخطبة.

وصدقنى..

لن أخطب ثانية.. سأكتفى دائما بالحب!



الكبار والصغار

انكم تتحـدثـون كثيرا عن سن المراهقـة، وتصفـون المراهقين بالانحـلال.. وتنسبـون أسباب انحلالهم إلى الأفلام السينمائية حينا، وإلى القصص الجنسية حينا آخر، وإلى اهمال الآباء.. و.. و.. كل منكم يحاول أن يجد سببا جديـدا لانحراف المراهقين، ليبدو أمـام قرائه استاذا كبيرا جليلا، وقائدا من قادة الجيل..

اسمحوا لى .. كلكم جهلة.. أو مدعون!

لقد كنت مراهقا.. آسف.. أنا لا زلت مراهقا.

وأنـا منحل.. كل الصفـات التى تصفـون بها المراهقين تنطبق علىّ.. الانحـراف، الاستهتـار، قلـة الأدب، الانغماس فى اللهـو.. و..و.. كلهـا من صفاتى، بلا فخر!

وأنا أعـرف بالضبط سبب انحلالى وانحـرافى، وليس بينها ـــ للأسف ـ سبب من الأسباب التى تفتقت عنهـا عبقريـاتكم.. فأنا لا أذهب إلى السينما إلا نادرا.. وآخر فيلم شاهـدته كان فيلم «خالد بن الوليـد».. ياحفيظ.. وأنا لا أقرأ قصص إحسـان عبدالقدوس.. انى فى الواقع لا أقـرأ القصص أبدا.. حاولت مـرة أن أقرأ قصة «شجرة البؤس» لطـه حسين، فلم أستطع أن أقرأ فيها أكثـر من أربع صفحات.. والمجتمع الذى نشأت فيه ليس لـه مشاكل.. لا مشـاكل اقتصـاديـة ولا نفسيـة.. ووالـدى رجل فـاضل، لا يـدللنى، ولا يهملنى، ولا يقسـو علىّ، بل يحاول دائما أن يناقش اخطـائى فى هدوء.. ووالدتى سيدة فاضلة تحيطنى بحنان حازم.

وحتى سن السـادسـة عشرة، كنت فتى رائعـا.. كنت أنجح دائما فى كل امتحان.. وكانت هوايتى هى الشطـرنج.. و.. عضلاتى.. كنت اهتم اهتماما كبيرا بعضلاتى.. كنت رياضيـا.. بطل النادى فى الاسكواش راكيت.. وكنت ألعب التنس.. وكـرة السلـة.. وكـرة القـدم.. والكـرة الطـائرة.. واشترك فى مسابقات السباحة .. و..

وكنت أحب سعاد .. سوسو..

كانت فى الخامسة عشرة من عمرها.. أصغر منى بعام.. حلوة.. جريئة.. هى التى علمتنى كيف أقبلها.. كانت أول فتاة أقبلها فى حياتى.

وكانت سوسو تحبنى..

لم أشك أبدا فى حبها.

وكنا نلتقى كل يوم فى النادى بعد عودتنا من المدرسة.. وتقف لتشاهدنى وأنا ألعب الاسكواش.. وكنت أحس انى ألعب من أجلها.. لم أكن أسمح لأحد أبدا بأن يغلبنى أمام سوسو.. كنت انتصر دائما.. وأحس انى اعطيها انتصارى لتتباهى به أمام بقية فتيات النادى.. ثم بعد أن انتهى من اللعب، كانت تنتظرنى إلى أن أبدل ثيابى ثم نتمشى سويا فى ملاعب النادى، أو ننضم إلى شلة الأصدقاء.. ونتحدث .. حديثنا لا ينضب أبداً .. وعيناى لا تملان عينيها .. وعيناها لا تملان عينى.

وانقضى عام على حبنا.

وفى يوم، لمحت سوسو واقفة فى النادى مع شاب.. رجل.. انى أعرفه.. انه واحد من الرجال الذين يجلسون فى بار النادى وهو فى الثلاثين من عمره ــ على الأقل ــ له شارب صغير، ويملك سيارة شيفروليه.

لماذا تقف سوسو معه ؟

ووقفت بعيدا انتظر أن ينتهيا من حديثهما.. لم اجرؤ على ان انضم إليهما أو أناديها.. لا أدرى لماذا.

وطال انتظارى.

ثم تركته وجاءت إلى، وهى تتقصع فى مشيتها أكثر من عادتها.. ورأسها مرفوع، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة، وقالت لى فى لهجة مفتعلة كأنها تحادث طفلا:

ــ ازيك يا جلال.. لعبت اسكواش ؟!

ونظرت إليها كأنى أبحث فيها عن شىء فقد منها، وقلت وقد بدأت أعصابى تهتاج :

ــ مين اللى كنتى واقفة معاه ده ؟

قالت بلا مبالاة :

— ده محمد .. ما تعرفوش ؟
قلت وأنا أكاد أخنقها بعينى :
— ايوه عارفه .. انما ايه اللى وقفك معاه؟
قالت وهى تهز كتفيها وتزيح خصلة من الشعر وقعت على جبينها :
— وفيها ايه .. ده صاحب أخويا.
قلت :
— ده أد أبوكى.
قالت فى حدة :
— من فضلك .. أنا مش صغيرة .. أنا عندى سبعتاشر سنة.. ثم انه مش أد أبويا.. قلت لك انه صاحب أخويا.. وعمره ما يكملش التلاتين !

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تحتد فيها.. وتكررت مشاداتنا.. وكلها كانت بسبب، سى محمد هذا.. ولكن سوسو كانت تجد دائما وسيلة لإنهاء خناقاتنا.. وكانت أقوى وسائلها قبلتها.. وكانت لا تزال تحرص على أن تشاهدنى فى كل مرة ألعب فيها الاسكواش.. لأمنحها النصر الذى تتباهى به أمام بقية الفتيات.

ثم كانت المباراة النهائية على كأس النادى.. ولم أعثر على سوسو قبل المباراة.. وارتديت ثياب اللعب، وذهبت إلى الملعب، ووقفت فى انتظارها.. ولكنها لم تأت.. وجاء دورى فى اللعب.. وهى لم تأت.. ووقفت ساهما.. خيل إلى انى لن استطيع أن انتصر إذا لم تأت سوسو.. لن استطيع أن ألعب.. وفجأة تركت الملعب، والجمهور يصيح ورائى ولا اهتم بصياحه.. وخرجت إلى حدائق النادى أبحث عن سوسو، ومضرب الاسكواش لا يزال فى يدى.

ورأيتها .
رأيتها من بعيد.
كانت تسير مع محمد، متجهين إلى موقف السيارات..
وظللت واقفا حتى شاهدتها تركب بجانبه فى سيارته.. ثم تنطلق بهما السيارة.. إلى بعيد.
وفجأة.. دون أن أدرى.. رفعت ذراعى وطوحت بمضرب الاسكواش فى

الهواء.. وخرجت من النادى وأنا لا زلت بملابس اللعب.. وأخذت أسير فى الشوارع فى خطوات سريعة متعثرة كأنى أهرب.. أهرب من وحش يلاحقنى.. وفى رأسى نار.. وفى قلبى نار.. وفى عينى نار.. ماذا أفعل.. هل ادبر جريمة لقتل محمد.. هل اقتل نفسى.. أرمى نفسى فى النيل.

وعدت إلى البيت.. وانكفأت على سريرى ابكى.. بكيت كثيرا.. وأفقت من بكائى، وأنا أسائل نفسى: ماذا يعجب سوسو فى محمد؟

يعجبها فيه انه كبير .. انه رجل!!

وأنا أيضا كبير.. أنا رجل.. وكل ما ينقصنى لاتخذ مظهر الرجال هو أن يكون لى شارب.. شارب صغير كشارب محمد!

ونظرت إلى وجهى فى المرآة.. انى احلق ذقنى وشاربى كل يومين.. ولو انتظرت أسبوعا واحدا دون أن احلق، لاصبح لى شارب.. ولحية أيضا إذا أردت!

وانتظرت أسبوعا.

وأصبح لى شارب.

وذهبت إلى النادى.. وقد قررت أن أبدو أمام سوسو مستهترا.. و.. واد تقيل .. وقابلتها، ونظرت فى وجهى، وصاحت :

— أنت حاتربى شنبك ؟

قلت وأنا انظر إليها من عل كأنها فتاة صغيرة :

— مش عاجبك ؟

قالت :

— مش لايق عليك !

قلت وأنا أضحك ضحكة غليظة، كضحكة الرجال :

— بكره تاخدى عليه!

ثم نظرت فى عينيها وقلت :

— وانتى عاملة ايه مع محمد.. شفتك الجمعة اللى فاتت فى عربيته؟

قالت :

— أصل كان عندى مغص، وخدنى يوصلنى البيت.. وانت ما لعبتش

يومها ليه؟

قلت ساخرا :

— كان عندي مغص.. بس ما لقتش جد يوصلني البيت.

قالت وهى جالسة :

— ومش حاتلعب النهاردة ؟

قلت :

— بينى وبينك الواحد كبر خلاص على اللعب!

قالت :

— طيب تعالى نقعد فى الجنينة.

قلت :

— لا.. أنا حاقعد فى البار.. عن اذنك!

وتركتها ودخلت البار.. لأول مرة.. ووجدت هناك شلة من أصدقائى الأكبر مني سنا، فجلست معهم.. وشربت الويسكى.. لأول مرة.. ودخنت السجائر.. لأول مرة.. ولن أصف لك طعم الكأس الأول، والسيكارة الأولى، فلابد انك تعرف طعمهما.. ولكن المهم.. انى أصبحت كمحمد.. لى شارب صغير.. مثله.. وأشرب الويسكى.. مثله.. وأدخن مثله.

ولم تعد لى سوسو.. لم تعد تحاول أن تكذب علىّ وترضينى.. اندفعت بكل صباها، وكل جمالها، وكل وقتها الفاضى، مع محمد.. محمد الذى يكبرها بأربعة عشر عاما على الأقل.

ولم أكن استطيع أن أسكت.

كان يجب أن أنتقم منها.

ولم تكن هناك طريقة لأنتقم منها، إلا بأن أعرف بنتا أخرى.. بل كثيرا من البنات.. ولم أكن أستطيع أن أعرف البنات إلا إذا خدعتهن، وضحكت عليهن.. وتعلمت كيف اخدعهن واضحك عليهن.. وكيف آخذ أجسادهن، ثم أدور أحكى لأصدقائى قصة جسد كل منهن.. فإذا جاءت سيرة سوسو، صحت ضاحكا :

— قديمة يا أستاذ.. شوف لنا حاجة جديدة !

وكـان ينقصنى كى تتم رجـولتى الجديدة أن تكـون لى سيـارة.. فكنت آخذ سيارة العائلة.. آخذها أحيانا برضـاء والدى، فإذا لم يرض، سرقتها من الجاراج.. وكـان ينقصنى كثير من المال لأشرب الويسكى، وأدخن، وأسهـر فى الكاباريهات.. وكـان والدى يعطينى كثيرا، فإذا لم يعطنى سرقت.. لم أبدأ بالسرقة ولكنى بدأت ببيع جميع أدواتى الرياضية!

وفى خلال عـام أصبحت واحدا من المراهقين الـذين تتحدثـون عنهم فى الصحف..

ثم ..

أتدرى ماذا حدث ؟

عادت إلىّ سـوسـو .. خدعها محمـد ولم يتزوجها.. خدعهـا لأنه رجل .. وقد جاءت إلىّ تبحث عن السلوان.

ولكنى رجل أنا الآخر.

أنا لا أقل عن محمد.

والرجـال يخدعون البنـات.. فلماذا تعتقد انى لن اخـدعها.. لماذا تطمئن إلىّ.. هل تعتقد انى طفل.. طفل لا أجيد فنون الخداع؟!

وخدعتها.

خدعتها أكثر مما خدعها محمد !

ماذا تقول يا أستاذ؟!

تقـول انى مراهـق سافل منحـرف.. ولكن.. إن الـرجـال أيضا سفلـة منحرفون!!





لن أقرأ الصحف



أنـا رجل بسيط الحال.. غـاية مـا وصلت اليه ان اشتغلت سائقا لسيـارة السيد مرسى عبدالعـزيز مديـر شركة التوريـدات، بمرتب قدره خمسـة عشر جنيهاً فى الشهـر.. ولاأظن انى سأصـل فى حيـاتى إلى أكثـر من هـذا.. والواقع انى لا أطمع فى أكثر من هذا ..

وقـد تـزوجت مـن ابنـة عمى وأنـا فى العشرين من عمرى .. امرأة قـروية طيبـة ، لا تقرأ ولا تكتب .. ولكـن لها من ذكائهـا وطيبة قلبهـا مـا يغنيهـا عن القـراءة والكتابـة.. ورزقت منهـا ببنتين.. فـاطمـة، وسميرة.. وسميرة أجمل وأرق من فـاطمة.. عينـاها واسعتـان كعينى أمى.. ولجمالها ورقتهـا منحتهـا من حبى ورعايتى أكثـر ممـا منحت اختها..

وأنـا لم اتم تعليمى.. لم أنل أكثـر من الشهادة الابتـدائيـة.. وليست لى هوايات.. لا أدخن ولا اتردد على المقـاهى، ولا أشرب الخمر.. لا شىء أبداً.. هوايتى الوحيدة هى قـراءة الصحف والمجلات.. كنت ادفع لعبد المنعم بائع الجرائد الـذى يقف أمام مقـر الشركـة، خمسـة قروش فى الاسبـوع، نظير قـراءة جميع الصحف والمجلات العـربية، على ان اردهـا اليه فى نفس يـوم صـدورهـا.. وكنت أقـرأ كل شىء فى الجريـدة أو المجلـة.. مـا يهمنى وما لا يهمنى.. ومـا افهمه وما لا افهمه.. ان الكلمة المطبـوعة لها علىّ تأثير السحر، كـالمخدر انى ادمن على الكـلام المطبوع.. وربما لـو قدمت لى نفس الكـلام مكتوبـا بخط اليد، لما قـرأته، ولـو قرأتـه لما اقتنعت به ولما تـرك فى نفسى أثـراً.. ولكن إذا طبع هذا الكـلام فى جريـدة أو مجلة شربتـه بعينى، وبعقلى، وبكل حواسى..

وكان أكثـر ما اهتم بقـراءته هـو ما يكتب عن البنـات.. ربما لأنى ـ كما تعلمون ـــ اب لبنتين.. وكانت الآراء التى تـدعو إلى حريـة البنت، وتعليمها، واقتحامها ميادين العمل.. و.. و.. هذه الآراء التى يـدعو اليها كبار الكتاب، كانت تحيرنى، وتثير فى نفسى معركـة عنيفة.. فقد نشأت فى بيئة لا تعترف

للبنت بشيء من هذه الحقوق، بل لا تعترف لها حتى بحق التعليم.. كل بناتنا جالسات فى البيوت.. وأمى لا تقرأ ولا تكتب، واختى لا تقرأ ولا تكتب، وزوجتى لاتقرأ ولاتكتب.. ونحن قوم سعداء.. بيوت سعيدة، وازواج سعداء، وأولاد سعداء.. ورغم ذلك فسحر الكلمة المطبوعة يسرى فى اعصابى ويتسلل إلى عقلى.. إلى أن تجرأت وادخلت فاطمة وسميرة المدرسة..

ولم اطمئن إلى جرأتى فى مبدأ الأمر.. كانت الجذور التى تربطنى بأجدادى وبيئتى تجعلنى احيانا أثور على نفسى لأنى ادخلت البنتين المدرسة.. وتجعلنى افكر كل يوم فى اخراجهما منها.. وكنت ارقبهما فى رواحهما وغدوهما، وانظر إلى وجهيهما كأنى ابحث فيه عن آثار فضيحة، أو بصمات رجل.. ثم مع مرور الأيام بدأت الجذور التى تمتد إلى اجدادى وبيئتى، تضعف وتموت.. وأصبحت مطمئنا إلى تعليم البنتين.. وكلما انتهتا من مرحلة من مراحل التعليم، دفعتنى الكلمة المطبوعة، إلى السماح لهما بالانتقال إلى مرحلة أخرى.. حتى نالت كل منهما شهادة الثقافة الثانوية.. ولم اكن اطمع، ولا كان فى قدرتى، ان اتركهما يستمران فى التعليم إلى أكثر من هذا الحد..

ثم بدأت أزمة نفسية تنتابنى من جديد.. هل اسمح للبنتين بالعمل؟ واحسست ان الجذور التى تمتد إلى أجدادى وبيئتى قد نشطت من جديد وبدأت تقلقنى.. ليس فى بلدتنا كلها فتاة تعمل أو امرأة تعمل.. كلهن جالسات فى البيوت.. ولكن الكلمة المطبوعة تحرضنى.. وتتسلل إلى منطقى.. ان ملايين البنات يعملن.. فى المصانع فى الشركات، فى الاتوبيس، فى هيلتون.. وكلهن بنات لهن آباء مثلى.. فلماذا لا أسمح لبناتى بالعمل..

وقررت ان اسمح للبنتين بالعمل.. وفرحت البنتان.. وجاء ابن اخى يخطب سميرة ــ البنت الصغرى ــ ولكنها رفضت.. لأنها تريد ان تعمل.. وأنا اريدها ان تعمل..

وسعيت لهما عن طريق مخدومى السيد مرسى عبدالعزيز، حتى وجدت لكل منهما عملا.. اصبحت فاطمة موظفة فى البنك اليونانى.. وأصبحت سميرة موظفة فى الشركة التى اعمل بها.. شركة التوريدات..

وازدادت فرحتى بهما..

لقد عوضنى الله عن إنجاب الأولاد.. انهما أكثر بركة وخيرا من الأولاد..

وارتفع دخل العائلة.. ان مرتب سميرة اثنى عشر جنيهـا، ومرتب فاطمة خمسـة عشر جنيهاً ـ مثل مـرتبى.. مـا شاء الله ـ .. اصبح دخلنـا اثنين واربعين جنيها فى الشهـر.. واستطعنا ان ننتقل إلى الـدور العلوى من البيت الذى كنا نسكن منه الدور الارضى.. شقة مشمسـة منيرة.. تشرح الصدر.. بحرى قبلى..

وازداد ايمانى بالكلمة المطبوعـة.. ورفعت المبلغ الذى ادفعه لعبد المنعم بـائع الصحف، إلى سبعـة قـروش، نظير قـراءة كل الكتب الشهـريـة وغير الشهرية، التى يبيعها، علاوة على قراءة الصحف والمجلات..

ومر عامان ونحن نرفل فى حياة سعيدة مطمئنة.. ورغم ان سميرة تعمل معى فى نفس الشركـة، فاننى لم أكن التقى بها خـلال ساعات العمـل.. كان مكتبها فى مبنى آخر تابع للشركـة، غير المبنى الذى يقع فيه مكتب مخدومى السيد مـرسى عبدالعزيـز.. وكانت مـواعيد عملها غير مـواعيد عملى.. انما كنت التقى بها وبأختهـا فى البيت بعـد العـودة من العمـل، ونقضـى معـاً ساعات طويلة حلوة، كل منا يقص على الآخرين ما صادفه فى يومه..

وسميرة سعيدة.. وسعـادتها تزداد يـوماً بعد يـوم.. حتى خيل إلىّ انها تـزغرد دائما.. فى عينيهـا زغرودة.. وفـوق كل خـد زغرودة.. وضحكـاتها زغـاريد.. وابن عمهـا لايزال يلح فى خطبتهـا.. انه يحبهـا المسكين.. وربما كانت هى الأخـرى تحبه.. ولكنهـا تحب العمل.. وتحب حريتها.. أكثـر مما تحبه..

ثم..

ثم بدأت الـزغاريد تخفت فى عينى سميرة، وتختفى من فـوق وجنتيها.. وبدأت ألحظ عليها وجوما متصلاً.. لم تعـد تشاركنا حديث المساء.. لم تعد تضحك.. لم تعد تأكل.. وأصبحت تـذهب إلى عملها فى الصباح كأنها تحمل عبئا ثقيـلاً تجر من تحته قدميهـا.. وتعود فى المساء أكثر اعيـاءا وانهيارا.. وهى تـذبل.. وتـذبل.. وتزداد هـزالاً .. ثم بـدأت تنتـابها نوبـات اغماء فى مكتبها.. ونصحتهـا مراراً أن تذهب إلى طبيب الشركة.. وربما كـانت تذهب إليه، أو لا تذهب.. ولكنها لا تزال تزداد هزالاً، ونوبات الاغماء تعاودها..

واغمى عليها مرة وهى فى البيت، فأسرعت إلى طبيب الشركـة، وعدت به..

وفحصها.. ثم طلب منا جميعاً ان نخرج مـن الغرفة.. واختلى بها طويلاً، ثم خرج الينا، وانتحى بـى جانباً، وهمس فى اذنى بصوت حزيـن، كأنه ينعيها إلىّ:

— انها حامل ..

انها لا تزال عذراء ..

ولكنها حامل ..

وبهت .. أحسست بـالغـرفـة تـدور بى.. رأسى إلى أسفل وقـدمى ملتصقتان بالسقف.. ولا أدرى كيف خـرج الطبيب، ولا متى.. ولكن الدنيا ظلت تـدور بى.. وأنـا احـاول جهـدى ان اوقف دورانها، وان اتمالك اعصابى.. وان افكر..

وأنـا رجل بسيط.. مسـالم.. لا استطيع ان افكـر فى القتل، أو فى الثأر.. لم يخطر على بـالى لحظة واحدة ان اقتل سميرة، أو الـرجل الذى خـدعها.. كل ما خطـر لى هو كيف ادارى فضيحتها.. وأصحح غلطتهـا.. وحاولت ان استعيد كل الكلمات المطبـوعة التى قـرأتها، لعلّى أجد فيهـا ما يـرشدنى إلى الحل..

وزوجتى تخبط على صدرها وتولول.. بنتى.. يا خسارتك يا بنتى.. كان الموت اهون يا بنتى..

وابنتى فاطمة بجانبها تبكى فى صمت..

وطلبت منهما ان يسكتا حتى لا تنتشر الفضيحـة بين الجيران.. اسكتا.. وصفعت زوجتى صفعة قوية.. فسكتت..

ودخلت إلى سميرة وجلست بجانب فراشها يـومين متتاليين وأنا اتوسل اليها ان تقـول لى اسم الرجـل الذى خدعهـا.. قولى يـا بنتى.. لا تخاف.. لن اقتلـه.. انت تعلمين اننـى لا استطيع ان اقتل فـرخـة.. فقـط سأحـاول ان اساعدك.. ربما هداه الله ودارى فضيحتك..

واخيراً نطقت ..

انه الاستاذ عزت مراد ..

واقتلعت الدهشة قلبى .. انه مدير فرع الشركة.. وهو غنى، يملك سيارة شفروليـه موديل ٥٨.. وهو من عـائلة كبيرة.. انـه ليس من طبقتنا.. فماذا أغراه ببنت مسكينة ضعيفة مثل سميرة..

وذهبت اليه مباشرة، ووقفت أمامه ذليلاً منكسرا، لا أعرف كيف ابدأه الكلام.. ورفع إلىّ وجهه اللامع، وتحركت شفتاه الموردتان من تحت شاربه الأصفر الأنيق، وقال وهو يبتسم:

— خير يا أسطى نعمان ؟

قلت فى ذل :

— بنتى سميرة يا بيه ..

قال وقد بدأت عيناه تضطربان :

— مالها ..

قلت :

— الله يستر عرضك يا عزت بيه .. استرها وحياة النبى.. انت برضه ابن ناس.. و..

وصاح فى وجهى :

— مش فاهم ..

قلت وأنا أكاد أبكى :

— دى حامل يا سعادة البيه ..

وعاد يصرخ :

— وأنا مالى .. ايه دخلنى فى الموضوع ده.. يمكن بتلم اعانة علشان تولدها !

واحتملت وقاحته، وقلت :

— دى قالت لى على كل حاجة .. استرها، يسترك ربنا.. انت مايخلصكش تسيبها فى الحالة دى..

وصرخ صرخة هائلة :

— انت مجنون يا راجل انت .. امشى اطلع بره..

وخرجت من مكتب السافل، المجرم، الدنىء.. عرفت ان لا أمل من مخاطبة ضميره.. فخاطبت مدير الشركة، السيد مرسى عبدالعزيز.. وصدقنى المدير.. انه رجل طيب ورع.. وطلب منى ان أقدم له الاتهام مكتوبا.. وقدمته.. فأصدر قرارا بوقف المجرم عن العمل، إلى حين انتهاء التحقيق..

وانتشرت القصة بين كل موظفى الشركة.. وتدخل الرؤساء ومحامى

الشركة.. وسميرة مريضة، تزداد ضعفاً وهزالاً..

ثم ..

أتدرون ماذا حدث؟

قدم المجرم عزت مراد بلاغا إلى النائب العام يتهمنى أنا وابنتى سميرة بالتشهير به، ومحاولة إلصاق تهمة كاذبة به..

هو الذى لجأ إلى النيابة..

لا أنا

تصوروا.. إلى هذا الحد تبلغ الصفاقة، والوقاحة، والاجرام..

واستدعتنى النيابة للتحقيق.. ورويت القصة كما عرفتها أمام المحقق.. ثم استدعوا ابنتى سميرة، وحملتها حملاً اليهم، لعل النيابة ترد اليها شرفها..

وقالت سميرة ان عزت خدعها.. وغرر بها وصحبها إلى بيته، وقدم لها كوبا من الشاى مذاب فيه مخدر ولم تدر بعدها، ماذا حدث..

ولكنها كانت تكذب..

حتى انا شعرت وانا اسمعها، ان قصة الشاى المسموم، قصة كاذبة وربما اضطرت سميرة إلى الكذب لأنها خجلت من ان تصرح بأنها استسلمت بارادتها.. وهى تعلم ان سنها فوق العشرين، والقانون لا يعاقب الرجل الذى ينال فتاة فوق العشرين، بإرادتها.

ولكن لماذا لجأت إلى قصة الشاى المسموم؟

ان هناك ما هو أخطر من الشاى المسموم..

هناك الكلام المسموم..

والوعود الزائفة..

والضعف البشرى نفسه..

ان كل هذا يمكن استغلاله فى ارتكاب جريمة، اكثر مما يمكن استغلال الشاى المسموم..

ولم يجد المحقق دليلاً على قصة سميرة..

وثبتت علينا تهمة التشهير بالأستاذ عزت مراد.. وأصبحنا نتوسل اليه.. ونجرى وراءه.. ونوسط لديه الأصدقاء.. حتى يتنازل عن دعواه، فلا نقدم إلى المحاكمة..

تصوروا..

بدلا من ان اطالبه برد شرف ابنتى.. اصبحت اتوسل اليه ان يعفو عنى، وعن ابنتى، لأننا تجرأنا على المطـالبة بحقنا.. وحياتك يا بيـه.. أبوس ايدك.. ده احنا ناس غلابة..

وطبعاً ، اضطر مـدير الشركة السيد مـرسى عبدالعزيـز، إلى اعادته إلى العمل.. مع الاعتذار الكافى..

وسميرة لا تزال مريضة، وتزداد هزالاً وضعفا..

وابن عمها يحبهـا ـ وقد سمع بـالقصة ـ ورغم ذلك يلح ان يتـزوجها.. وسميرة ترفض.. ثم قالت له وهو لا يزال يلح عليها:

— انا حامل ..

قال :

— ولـو .. انتـى لحمى ودمى .. واللى اعتـدى عليكـى اعتـدى علىّ.. وفضيحتك فضيحتى.. واحنا الاتنين حا نداريها سوا .. حاننسى..

ولكنها اصرت على الرفض ..

ثم ..

ثم ماتت ..

●●●

أتدرون ماذا حدث؟

لقـد أخـرجت ابنتى فـاطمـة من عملهـا.. حتى لا تموت هى الأخـرى.. وحبستها فى البيت.. كأمى.. واختى.. وزوجتى.. وانتقلنـا إلى الدور الأرضى من المنزل الذى نسكنه..

أتدرون أيضـا؟!

لم اعد أقرأ الصحف والمجلات..

●●●



خطاب من موسكو



أنا لست جميلة ..

وربما لـو رأيتني لاعتقـدت انى جميلـة.. ولكن رأيـك لا يهم، المهم هــو رأيى أنـــا فى نفسي.. وأنا اعتقد انى لست جميلة..

وقـد صحبني هـذا الاعتقـاد طـول عمـرى، وأصبحت أؤمن بأن ليس هناك شاب يرضى بى أو يتلهف علىّ..

واحببت ..

احببت مرتين ..

وفى كلتا المرتين كان حباً صامتـاً، اطويه فى قلبى، واخفيه تحت جفونى، وأحرم عليه ابتسـامتي.. ولم أجرؤ فى المرتين على ان اجعل من حبى حقيقة اعيش فيها.. احتفظت به وهما.. وخيالا.. وليس أكثر من خيال..

والذى أحببته فى كل من المرتين لم يشعر بحبى.. لم ادعه يشعر به.. انما كان كل ما يشعـر به نحوى هو الصداقة.. مجرد صـداقة.. وكل منهما كان يصل بصداقته إلى حد ان يروى لى مغامراته مع غيرى من البنات ، أو يروى لى قصة حبـه لبنت أخرى.. فـأستمع له.. واتعـذب، واظل اتتبعه فى حيـاته بقلبى المسكين إلى أن أراه يتزوج غيرى.. فأبكى وحيدة فى ليلة زفافه..

ثم ..

ثم قـابلت كمال فى حفلـة صغيرة اقيمـت فى بيت احـدى صـديقـاتى.. ولا أدرى كيف وجدته جـالسا بجانبى يروى لى قصة حيـاته، ويبلغنى انه مسافر غـدا إلى موسكو فى بعثة دراسيـة.. ربما كان فى وجهى شيء يجذب الشبـان إلى صــداقتـى، ويصــدهم عن حبي.. لا بـأس.. شيء خير من لا شيء.. وإذا لم يكن الحب من نصيبي، فانى احمد الله على الصداقة..

وظل كمال بجانبى طول الحفلة، ثم فوجئت به قبل ان انصرف يسألنى:

— اقدر أبعت لك جوابات بعدما أسافر؟

ونظرت إليه كأنى ابحث فى وجهـه عن سر هذا الاهتمام الزائد المفاجىء، بى.. ثم قلت بلامبالاة:

— ما فيش مانع ..

وسافر كمال فى اليوم التالى ..

ولم يمض أكثر من اسبوعين حتى تسلمت أول رسـالة منه.. ودهشت.. لم أكن اعتقـد انـه كـان يعنى مـا يقـول عنـدمـا طلب منى ان اسمح لـه بمراسلتى.. كنت اظنـه يجاملنى.. كنت اظنه يتكلم مجرد كـلام، لعله قـاله لألف فتـاة قبل سفره.. ولكنـه لا يستطيع ان يراسل ألف فتـاة.. لا بد انـه اختصنى انا وحدى بخطابه هذا..

وخفق قلبى من الفرح..

كانت خفقة فرح.. وليست خفقة حب..

وفضضت الخطاب، ورعشة الفرح تسرى فى يـدى.. وقرأت.. انه يصف لى رحلته إلى موسكـو.. وحياته هناك.. ويصف المدينـة.. ولا شىء أكثر من هذا.. ويرجونى ان ارد عليه..

انـه خطاب اقـرب إلى خطـابات التعـارف التى يـرسلها قـراء الصحف بعضـهم إلى بعض، دون ان يعرفوا بعضـهم بعضا..

لا بأس ..

هذا نصيبى من الدنيا ..

الصداقة .. الصداقة فقط ..

وامسكت بقلمى، وكتبت له خطـاباً.. مجرد خطاب إلى صديق، حشـوته بكثير من النصائح، كأنى أخته أو أمه..

ووصلنى الرد بعد اسبـوع واحد.. كأنه كتبه فى نفس اليـوم الذى تلقى فيه خطابى.. المسكين.. انه لا يجد شيئا يسليـه عن غربته فى موسكو إلا أن يكتب لى خطاباً..

وتوالت خطاباتنا ..

ولم تكن تحمل أكثر من كلمات الصداقة.. ولكنى بدأت أحس فيما يكتبه شيئـا ابعـد من الصـداقـة.. شىء وراء الكلمات.. شىء لا يفصـح عنـه

بصراحة.. شيء كالحب.. ربما كنت واهمة.. أو ربما كانت غربته قد استبدت به إلى حد أن أصيب بمرض « الحنين إلى الوطن » .. ولم يجد ما ينفس به عن حنينه إلا هذه الخطابات الطويلة، وهذه الكلمات الرقيقة.. كأنه يعتبرنى وطنه الذى يحن إليه.. نعم.. لا بد انه هذا.. فهو يحدثنى كثيرا عن ضيقه بغربته، وضيقه بموسكو.. بل إنه يفكر فى تغيير بعثته إلى لندن بدلا من موسكو، ويفكر أحيانا أخرى فى الاستغناء عن البعثة أصلاً، والعودة إلى القاهرة..

.وكلماته تزداد رقة، وتزداد تعبيراً عن شيء ابعد من مجرد الصداقة..

وأنا حريصة على ألا اندفع وراء هذا الوهم الذى يطل علىّ من خطاباته.. كنت أكذب نفسي.. لا، ليس هذا حباً.. انه لا يمكن ان يحبنى.. وكنت أصر فى ردى عليه ان أظل صديقة، مجرد صديقة.. كنت أحرص على ان اختار كلمات لا تحمل أكثر من معناها اللفظى.. ولكنى مع الأيام بدأت أحب الكتابة إليه.. وبدأت أحب انتظار رسائله..

ثم ..

ثم وقعت المفاجأة ..

خطاب سريع منه يقول لى فيه: «أحبك.. أحبك.. صدقينى انى أحبك.. لم أعد أحتمل ان أخفى حبى أكثر من هذا.. وقد قررت أن أعود إلى القاهرة، لأخطبك.. لنتزوج.. وإنى فى انتظار برقية منك بالموافقة.. سأنتظر برقيتك فى كل يوم.. فى كل ساعة.. فى كل دقيقة.. إلى أن تصلنى.. و.. ».

وكدت أجن من الفرحة..

إنها أول كلمة حب أسمعها من رجل ..

إنه أول رجل يتقدم لخطبتى..

ولم أفكر ساعتها فى كيف استطاع أن يحبنى وهو لم يلتق بى إلا مرة واحدة قبل سفره.. لم أفكر فى شيء.. إنى فرحة.. الفرحة فى رأسى.. وفى قلبى.. أكاد أطير من الفرحة..

ولم أتردد ..

أرسلت له برقية من كلمة واحدة « موافقة » ..

أرسلتهـــا قبل أن أستشير أهلى .. بل قبـل أن أستشير نفسى.. ثم درت أعلن الخبر إلى صديقـاتى.. كأنى أعلنهن بأنى أصبحت بنتا مثلهن.. ولست أقل منهن جمالا.. ولى حبيب.. وحبيبى سيأتى من آخر الدنيا ليخطبنى..

وفـرحت معـى صـديقـاتى.. إنهن يحببننى.. وكـل شىء فى يبتسم من الفرحـة، ويكاد يـزغرد.. وشفتـاى، ووجنتاى، ومشيتى، ولفتـاتى، وهزات أصابعى..

ولكن ..

أهلى يعارضون .. إنه لا يعجبهم .. ليـس من عائلة كبيرة.. ولا غنيا.. ولا يعرفون عنه شيئا.. ولا أنا أعرف عنه شيئا..

ولكنه يحبنى ..

يريدنى ..

ألا يكفى هذا ؟ !

ووقفت فى وجه أهلى ، دفاعـا عن فرحتى .. دفاعا عن الثقـة التى أعادها كمال إلى نفسى.. ثقتى فى أنى فتاة مرغوبة ، يريدها شاب..

وصرخت .. وهددت ..

وجاء كمال من موسكو .. واستقبلتـه بفرحتى .. ولم أر فيه إلا فرحتى.. ثم شغلتنا نحن الاثنين معارضة أهلى فى زواجنا..

ولم يكن شىء فى الـدنيـا يستطيع أن يقف فى وجـه هـذا الـزواج.. كنت مستعدة أن ارتكب جريمة.. أن انتحر.. أن أهرب.. أى شىء لأتزوج كمال.

وأخيرا..

رضخ أهلى ..

وأعلنت خطبتى، والزغاريد تملأ أذنى، وتقفز فوق وجنتى..

ثم هدأ كل شىء حولنا أنا وكمال.. وبدأنا نلتفت أحدنا إلى الآخر، ويرى أحدنا الآخر.

وفجأة وجدتنى اسأل نفسى : هل أحبه ؟

وحاولت أن أطرد هذا السؤال من رأسى، فلم يكن معقولا ـ بعد كل هذا ـ أن أشك فى حبى له.. ولكن السؤال يلح على.. ويطاردنى.

وبدأت أرقب نفسى، وعواطفى..

إن لمسة يده لا تثير فىّ شيئا.. انى أضع يـدى فى يده، كأنى اضعها فى يد صـديق.. وأحـاول أن أضغط عليهـا، ويحاول هـو الآخـر أن يضغط على يدى.. ولكننا لانعتصر شيئا من هذا الضغط، أكثر من الصداقة.

وقبلتــه.. ان قبلتــه لا تنسينى نفسى.. لا انتشى بها.. انى أقبلـه وعقلى صـاح يتسـاءل: هل أحبـه؟! بل انى اتسـاءل أحيانـا وأنا بين شفتيـه: متى تنتهى هذه القبلة؟! وقـد حاولنا فى قبلاتنا كثيراً.. حاولنـا ان نجمع عواطفنا فيهـا.. وان نطيلهـا.. وان نعتصر من شفـاهنـا شيئـا.. ولكن.. لا شىء.. لا شىء..

وأخيراً، يئسنا ..

عرف كل منا عواطفه نحو الآخر.

واحاطنا شعـور كالهواء البارد.. وكل منا يحاول ان يفصـح للآخر عما فى نفسه، ثم لا يستطيع.. كـان من الصعب على كلينا ان يعترف بـالحقيقة.. ان أقول له، أو يقول لى، إنه ليس الحب..

وبدأ كمال يغيب عنى طويلاً ..

وبدأت لا أنتظره..

ثم بـدأت أرى منه طبـاعـاً لا أستطيع أن أتحملها.. وتصرفـات صغيرة تثيرنى.. الطـريقـة التى يأكل بها.. ذوقـه فى اختيار أربطـة عنقـه.. و.. و.. عشرات الأشياء الصغيرة..

ولعله كان يجد فىّ نفس الشىء..

وأخيراً، قررت بينى وبين نفسى، انه لا يصلح لى..

لا أستطيع أن أتزوجه..

وربما اتخذ هو الآخر نفس القرار، فى نفس الوقت..

كيف يعلن كل منا قراره للآخر؟

هل ننتظـر إلى أن نتشاجـر سـويا ، ونجعل مـن فسخ خطبتنا مأسـاة تبكينا..لماذا لا يتم كل شىء ببساطة وهدوء، ونبقى أصدقاء؟!

وقلت له وأنا أستعين بكل أعصابى:

— تيجى نسيب بعض يا كمال؟

وقال فى تردد كأنه يخشى ان يجرحنى :

— انتى عايزه كده!

قلت :

— أنا عايزة .. وانت كمان عايز!

قال وهو يبتسم ابتسامة خجلة:

— زى ما يعجبك!

وفسخنا خطبتنا فى هدوء..

ولم اندم .. ولم أغضب منه..

كان كل شيء واضحاً فى عقلى.. ان هذه الخطبة دفعتنا إليها غربته فى موسكو.. ودفعتنى إليها أنه أول رجل تقدم لخطبتى فى الوقت الذى كنت أشعر فيه بأنى لست مرغوبة من الرجال.. لم اندم.. ورغم ذلك بكيت..

بكيت كثيراً..

وأصبح نصيبى من كمال، هو نصيبى من كل الشبان..

وعاد إلى موسكو ..

وعاد يرسل إلىّ الخطابات ..

●●●




فوتوجينيك

أنا مصور فوتوغرافى ..
بدأت هاوياً ، وانتهيت محترفاً ..
ولا أدرى متى بـدأت هـوايتـى .. بل إنى لا أذكر يوماً مـن عمرى لم أحمل فيه بين يدى آلـة تصـويـر .. فقـد كـان والـدى من هـواة التصـويـر أيضا ، وكنت وأنـا صغير أجـرى لأخطف آلة التصوير ، وأضمهـا إلى صدرى فـرحاً ضاحـكاً كأنى أضم كل ما فى الـدنيا .. وكنت إذا بكيت لا أسكت إلا إذا جاءت لى والدتى بآلة التصوير .. وإذا أرادوا أن يسقونـى «شربة» أو دواء مراً ، تحايلوا علىّ بإعطـائى آلة التصـوير .. وعنـدمـا أصبحت فى العاشرة من عمـرى ، ونلت الشهادة الابتدائية ، أهدانى والدى آلة تصوير .. كاميرا !

ومن يومها وأنا أرى الدنيا وأرى الناس ، من خلال عدسة الكاميرا ..

لم يكن مـا أراه بعينى يصلح للحكـم على الأشيـاء .. كـان الحكم دائماً لعدســة الكاميرا .. أى أنى لو رأيت رجـلا بعينى لا أستطيع أن أحكم عليه .. لا أستطيع أن أحبه أو أكرهــه .. لا أستطيع أن أحكم على أخلاقه .. وإنما كل ما يحدث لى هو أن يثير هـذا الرجل اهتمامى أو لا يثيره .. فإذا أثار اهتمامى صوبت إليه العدسة والتقطت صـورته .. ثم انظر فى الصـورة ، ومن خلالها أستطيع أن أحكم عليه .. أستطيع أن أعـرف أخلاقــه .. أستطيع أن أحبه أو أكرهه ..

وأنت تعرف أن عدسة الكاميرا تعمل بالضبط بنفس الطريقة التى تعمل بها عين الإنســان .. أى أن تــركيبهــا الميكــانيكى هـــو نفســـه التركيب الفسيولوجى لعين الإنسان ..

ورغم ذلك ..

فإن هنـاك فارقـا بين مـا تلتقطـه عين الإنسان ، ومـا تلتقطـه عدسـة الكاميرا.. فـالمنظر الطبيعـى الذى يبـدو فى الصورة الفـوتوغـرافية ، تجده مـختلفا عن نفس المنظـر إذا وقفت أمامه وتطلعت إليـه بعينيك المجردتين ..

إن فى الصورة تفـاصيل كثيرة لم تلتقطها عينـاك ، وفيها تكـامل وانسجام لا تستطيع أن تحس بهما بعينيك ، ولكن عـدسـة الكـاميرا أحست بهما .. كذلك وجوه الناس .. إن الوجه الذى تراه عيناك، يختلف عن نفس الوجه إذا التقطته آلة التصوير .. قد ترى بعينيك وجه فتاة فى غاية الجمال ، ولكنك إذا التقطتها بـالعدسة وجـدتها فى الصورة أقل جمالا .. بل قد لا تكـون جميلة أبـدا .. وهذا الاختـلاف هـو الـذى أدى إلى تقسيم وجوه البشر إلى : وجـوه « فوتوجينيك » ووجوه « ليست فوتوجينيك » !

وهـذا الخلاف بين عين الكـاميرا ، وعين الإنسـان ، قـد يبـدو ضئيـلا بالنسبة للرجل العادى ، ولكنه بالنسبة لفنان مثلى يبدو كبيرا .. كبيرا جدا !!

وقد بدأ هذا الخلاف يحيرنى منذ مدة طويلة ..

كنت أسـأل نفسـى : ما الـذى يجعل بعض الوجوه فـوتوجينيك والبعض الآخر ليس فوتوجينيك ؟ !

من الناحيـة العلمية يستطيع أى أخصائى فى التصويـر أن يقول لك أن الظـلال التى تلقيهـا مـلامح الـوجه هـى التى تـؤثر فى مـدى صـلاحيتـه للتصويـر .. أى قد يكـون وجهك جميلا ، ولكن الظل الـذى يلقيه أنفك على وجنتيك يجعل وجهك يبـدو فى الصـورة مسطحـاً ، فيصبـح وجهك ليس فوتوجينيكياً !!

ولكن هذا الكلام العلمـى ليس صحيحا على إطلاقه ، فقد أجـريت مئات التجـارب على ظلال الـوجـه ، ورغم ذلك ظلت هنـاك وجوه فـوتـوجينيك ، ووجوه غير فوتوجينيك، حتى لو تساوت الظلال بينها !

ووجدت نفسى بعد قليل أتساءل :

أيهما أصدق .. عين الإنسان أم عين الكاميرا ؟!

إن كـلا منهما يـرى نفس الشىء رؤيـة مختلفـة ، فأيهما أصـدق فى رؤياه .. هل ما نراه بأعيننا هو الحقيقة ، أم ما تراه عين الكاميرا ؟

وحيرنى السؤال ..

عشت شهوراً طويلة حائراً ..

ثم ..

وجدت الاكتشاف العلمى الضخم .. وجدت الجواب ..

إن عين الكاميرا أصدق من عين الإنسان !

لا تندهش ..

ولكن ، اسألنى : لماذا ؟

والمسألة بسيطة ..

إن عين الإنسان تتعرض لمؤثرات كثيرة .. تتعرض للعاطفة .. فإن عواطفك تؤثر فى عينيك ، فترى الشخص الذى تكرهه دميما .. وترى الشخص الذى تحبه جميلا ، وبيت الشعر الذى يقول « وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، ولكن عين السخط تبدى المساويا » ، ليس مجرد بيت شعر ، إنه نظرية علمية !!

كما أن عين الإنسان تتعرض لمؤثرات الجنس ، فالرجل قد يرى المرأة الجميلة لمجرد أنها امرأة ، أو لأنه يشتهيها .. كما تتعرض لمقتضيات المصلحة الخاصة كما يصورها لك العقل .. فإذا كنت محتاجا لرجل فإنك غالبا ما تراه إنسانا سمحا ينطق وجهه بخفة الدم حين أنه قد يكون سمجا ثقيل الدم ، و .. و ..

هذه هى عين الإنسان ..

عين لا يمكن أن تكون صادقة .. لأنها عين ليست منزهة ، وليست محايدة ، إنما هى عين أسيرة بين قلب الإنسان وعقله .. أسيرة الأهواء !

ولكن ..

عين الكاميرا ليست كذلك ..

إنها عين نزيهة .. محايدة .. متحررة من الأهواء .. عين لا تخضع لعاطفة ، ولا لشهوة جنسية ، ولا لمصلحة خاصة ..

إنها عين صادقة ..

إن ما تراه الكاميرا حقيقة قاطعة ..

وما يراه الإنسان حقيقة مشكوك فيها ..

ولكن ..

هناك سؤال أعمق .. وأخطر !!

هل الفرق بين ما تراه عين الإنسان ، وما تراه عين الكاميرا ، هو مجرد فرق فى الشكل .. فى المظهر الخارجى .. أى هل كان الفرق ينحصر فى أن الوجه الذى تراه عين الإنسان جميلا ، قد يبدو فى الصورة الفوتوغرافية أقل جمالا ؟

أم هو فرق فى الحقيقة التى تختفى خلف الوجه .. حقيقة الشخص نفسه .. أخلاقه .. طباعه .. نياته ؟!

وبمعنى آخر ؟!

هل تلتقط الكاميرا صورة الوجه فقط ، أم تلتقط مع الوجه صورة الأخلاق والنيات ؟؟!

سؤال خطير !!

ولكنى وجدت الجواب ..

والجواب هو أن الكاميرا تلتقط أيضا صورة الأعماق .. صورة أخلاق كل من يقف أمامها .. فأنت ـ أو على الأصح ، أنا ـ أستطيع أن أعرف أخلاق الشخص من صورته الفوتوغرافية .. بل إنى لا أطمئن إلى شخص إلا بعد أن ألتقط صورته وأدقق فيها لأعرف أخلاقه .. ونياته !!

وكثيرا .. كثيرا جدا .. يحدث أن تلتقى بشخص وترتاح إليه ، وتطمئن إلى نياته ، ولكنك إذا التقطت صورته ، ودققت النظر فيها ، وجدت ملامحه تنطق بالخبث ، والجشع ، وسوء النية .. وعليك فى هذه الحالة ، أن تصدق عين الكاميرا ، ولا تصدق عينيك ، لأن عينى الإنسان ـــ كما قلت لك مشكوك فى صدقها ..

وأصبحت هذه نظريتى فى الحياة ..

أرى الناس والأشياء من خلال عدسة الكاميرا ، وأحكم على الناس والأشياء كما تحكم عليهم الكاميرا .. حتى أنى قررت يوما أن أشترى سيارة مستعملة وكان صاحبها يبدو صادقا طيبا حسن النية ، ولكنى رغم إحساسى بصدقه وطيبته صممت قبل أن أشترى السيارة على أن ألتقط له صورة .. ودققت النظر فى الصورة، فإذا به يبدو خبيثا ، كاذبا ، سيىء النية، وكان وجهه طبعا ليس «فوتوجينيك» .. ولم أشتر السيارة .. وحمدت

الله لأنى لم أشترها ، فقد اشتراها صـديق لى ، وتبين له ، بعد أن اشتراها أن « الأكس » مكسور وملحوم .. وضاع عليه الثمن الذى دفعه !!

وكنت سعيداً باكتشاف ..

كنت أسير فى الحياة ، وفى يدى عدسة سحرية تطلعنى على خبايا النفوس .. عدسة الكاميرا !!

إلى أن التقيت بسعاد ..

ورأيت سعاد من النظرة الأولى .. جميلة .. رائعة .. وجهها يتعلق بالبراءة .. وعيناها تشعان بذكاء طيب هادىء .. وابتسامتها تطرق قلبك بحنان غريب .. وشعرها منسدل على كتفيها فى راحة ، كأنه منذ ولدت نائم فى مكانه لم يوقظه أحد ..

رأيتها كما أرى حلما عشت فيه عمرى كله ..

ولم تسنح لى فرصة لتصويرها لأسابيع طويلة .. ولكنى لم أكن فى حاجة إلى تصويرها .. كانت صورتها تزداد وضوحاً فى عينى يوما بعد يوم .. وحديثها الشيق يقودنى إلى أعماقها .. أعماق من النور .. نور ومن تحته نور ..

وأحببتها ..

أحببتها إلى حد أنى كنت أنسى الكاميرا ، وأنا بجانبها .. نعم .. إلى هذا الحد أحببتها !

ثم ..

التقطت لها صورة .. بعين الكاميرا .. ولم ألتقط صورتها لأنى كنت أريد أن أعرفها أكثر .. لا .. فقد كنت واثقا من أنى لست فى حاجة لأعرفها أكثر ..

وذهبت إلى معملى ، وحمضت الصورة ، ثم أضأت النور ، ونظرت إليها وأنا مطمئن النفس .. واثق من النتيجة ..

ولكن ..

ما هذا ؟!

إنها ليست فوتوجينيك !!

إن وجهها يبدو مسطحا .. باهتا .. وابتسامتها تبدو مفتعلة .. وفى عينيها خبث .. وبشرتها تبدو خشنة كأنها بشرة فتاة أنهكتها التجارب ..

لا .. لا يمكن .. لا بد أن شيئا حدث وأنا ألتقط لها هذه الصورة ..

والتقطت لها صورة أخرى .. وثانية .. وثالثة .. عشرات الصور .. فى أوضاع مختلفة .. ومن زوايا مختلفة .. وعكست عليها النور من جميع الجهات .. وصوّرتها دون أن تدرى .. وصورتها وهى تدرى .. و ..

والنتيجة واحدة ..

إنها ليست فوتوجينيك ..

إن عين الكاميرا لا تريد أن ترحمها ..

عين الكاميرا لا تريد أن تكذب ..

ولكن ، من قال إن عين الكاميرا أصدق من عين الإنسان ؟!

ما هذه النظرية السخيفة التى ابتكرتها ، وآمنت بها !

كيف أجعل هذه الآلة الصماء ـ الكاميرا ـ تتحكم فى منطقى ، وفى حكمى على الأشياء والناس ، ثم أتركها تتحكم الآن فى عواطفى ..

لا ..

هذه نظرية جوفاء ..

هذه سخافة ..

إنى أحب سعاد .. والحب هو الحقيقة .. الحب هو الصدق .. الحب هو حياتى !!

وهجرت الكاميرا ..

تركتها ..

لم أعد أرى الدنيا من خلال عدستها ، بل لم أعد ألتقط بها صورا ..

تركت مهنة التصوير الفوتوغرافى ..

كل ما فعلته قبل أن أهجر الكاميرا والتصوير .. هو أنى جئت بإحدى صور سعاد ، وأجريت فيها بيدى رتوشا كثيرة ، حتى بدت جميلة .. جميلة جداً ..

وأهديتها الصورة ذات الرتوش ..
الصورة المزورة ..
ثم تزوجتها ..

* * *

أتدرى ماذا حدث ؟!
بعد سنة ، طلقت سعاد ..
لقد كانت عين الكاميرا ، أصدق من عين الإنسان ..
وعدت إلى الكاميرا ..

● ● ●



قمة الجبل

لم أكن قد زرت بلدة « سيرميوني » من قبل ، ولا سمعت باسمها ، رغم كثرة رحلاتى إلى إيطاليا .. ولكنى وجدت نفسى فيها مصادفة وأنا أقطع الطريق بالسيارة من فينيسيا إلى ميلانو ..

إنها قطعة من الجبل ممتدة داخل بحيرة «لاجو ديلاجاردا» .. والجبل تغطيه أشجار الصنوبر العالية.. وظلال الأشجار تستحم فى مياه البحيرة.. والبلدة هادئة.. وشوارعها ضيقة عتيقة كأنها صفحة من التاريخ، وكل شىء يبتسم فى دعة، البحيرة تهمس، والشجر يهمس، والناس يهمسون.

وأحسست بشىء يقيدنى إلى سيرميونى.. ربما كان حاجتى إلى الراحة والهدوء.. ربما كانت القمم العالية التى تحيط بى.. ربما كانت حلاوة المفاجأة وأنا ألتقى بقطعة من الجنة.

وركنت سيارتى، وحجزت لنفسى حجرة فى فندق أقيم فوق قمة الجبل ربما كان أفخم فنادق البلدة.. ثم نزلت أطوف بالشوارع الضيقة المرصوفة بقطع الأحجار الصغيرة.. والهدوء يسرى فى أعصابى.. وابتسامة كبيرة تملأ قلبى.. ثم جلست فى مطعم صغير.. وشمس الربيع تغمرنى.. والبحيرة تحت أقدامى.. والجبل الأخضر يطل علىّ.

كنت سعيدا.. سعيدا.. لا أريد شيئا أكثر من ذلك.

والمطعم الصغير ليس معدا للسياح.. إن كل زبائنه من الإيطاليين.. وكلهم من الطبقة المتوسطة البسيطة.. وأخذت أدير عينى بينهم كأنى أتعرف على زملائى فى الجنة.. زملائى الملائكة.

وسقطت عيناى على فتاة جالسة مع شاب على مائدة مجاورة.. الفتاة فيها كل الجمال الإيطالى.. العينان السمراوان الواسعتان.. والحاجبان الكثيفان والشفاه الواسعة الغليظة.. والقامة القصيرة الممتلئة.. وكانت

تلبس البنطلون والبلوز.. ولفت نظرى فيها جلستها.. إنها تجلس غاطسة فى المقعد.. كأنها تحتمى به.. أو كأنها تكاد تسقط من فوقه.

أما الشاب الذى معها فكان أشقر ألشعر.. صارم التقاطيع.. فى نظراته غطرسة.. قوى العضلات.. قوى جدا.. وكانت عيناه مسلطتين على وجه الفتاة دائما.. لا يرفعهما عنها.. وبين شفتيه ابتسامة فيها إصرار، كأنه يحاول أن يسلب إرادتها بابتسامته.. وهى تتجاهل نظراته حينا.. وتغطس فى مقعدها أكثر.

وكان يبدو أنهما لا يتحدثان لغة واحدة.. إنى اسمعه يتحدث الألمانية، وأسمعها تتحدث الإيطالية.. وكل منهما لا يعرف لغة الآخر، فيحاولان التفاهم بالإشارات وببضع كلمات ممزقة.

وابتسمت عيناى، وأنا أتخيل الحديث الذى يمكن أن يدور بينهما والقصة التى يمكن أن تجمعهما.

وقبل أن أدير وجهى.. رفعت الفتاة عينيها والتقت بعينى..

وأرخيت عينى بسرعة..

ولكن جلستى كانت فى مواجهتها.. ولم أكن أستطيع أن أتفادى الالتقاء بعينيها مرة أخرى.

ثم ..

ثم خيل إلىّ أنها تبتسم لى.. ابتسامة سريعة، ثم عادت بعينيها إلى الشاب الألمانى الذى يجلس معها وظهره إلىّ..

ولم أرد ابتسامتها..

إنى لا أريد..

كل ما أريده هو الراحة والهدوء..

ولكنها ابتسمت لى مرة أخرى، ابتسامة واسعة.. ثم غطست فى مقعدها أكثر..

وتجاهلت أيضا هذه الابتسامة.

ولكنى لم أستطع أن أتجاهل الابتسامة الثالثة.. ورغما عنى، ارتفعت إلى شفتى ابتسامة حائرة مترددة.

وفجأة قام الرجل الألمانى من جانبها واختفى داخل المطعم.. والتفتت الفتاة إلىّ بكل جسمها، وابتسامتها تملأ وجهها.

وتعجبت .. وخفت .. خفت على هدوئى وراحتى.. ولكن حيائى منعنى من أن أتجاهل ابتسامتها.. فابتسمت لها، وظلت عيناها السمراوان معلقتين فوق وجهى، وفيهما نظرة عجيبة.. ليست نظرة إعجاب على كل حال.. ووجدت نفسى ـ تحت إلحاح هذه النظرة ـ أحرك شفتى وأقول كلاما.. أى كلام.. وتكلمت بصوت خافت، لايمكن أن تسمعه.. ولكنها ما كادت ترى شفتى تتحركان، حتى قفزت من فوق مقعدها، وجاءت إلى مائدتى ووقفت فوق رأسى، وقالت كلاما باللغة الإيطالية لم أفهم منه شيئا.

ووقفت احتراما لها ، وقلت الكلمتين الإيطاليتين اللتين أعرفهما:

— هل تتكلمين الإنجليزية؟

— لا ..

— الفرنسية ؟

— يوكو (أى قليلا) ..

وبدأت أحدثها بالفرنسية.. وكان ما تعرفه منها أقل مما أعرفه من الإيطالية.. ولم يكن هناك شىء يمكن أن تقوله لى، ولكن كان يبدو أنها مصرة على أن تتحدث إلىّ ، فظلت واقفة، تبذل مجهودا كبيرا فى الاحتفاظ بابتسامتها، وتبذل مجهودا أكبر فى البحث عن كلمة تقولها، ويمكن أن أفهمها..

وبعد ذلك ، كان علىّ أن أدعوها للجلوس معى..

وبسرعة ، وبلا تردد ، قبلت دعوتى.. وشدت حقيبتها من فوق المائدة الأخرى التى كانت تجلس إليها.. و.. جلست بجانبى.. وأحسست بها تتنهد بمجرد أن جلست.. تتنهد فى راحة.. كأنها وصلت.. ولم تجلس غاطسة فى مقعدها، بل جلست معتدلة، وعيناها هادئتان.

وعرفت اسمها: ليديا.

ودار بيننا الحديث الذى يدور عادة بين غريبين لا يعرف كلاهما لغة

الآخر، وضحكنا كثيرا وهى تحاول أن تفهمنى ما تقول باللغة الإيطالية، وأنا أحاول أن أفهمها بالفرنسية.. وشعرت وهى قريبة منى أنها ليست من هذا الصنف من البنات الذى يصطاد السياح.. لم تثر فىّ أى رغبة فى مغامرة.. ولم تشجعنى عليها.. بالعكس.. كان كل ما فيها يثير الاحترام.. والطيبة.. وفوق صدرها صليب ذهبى صغير، تلمسه بأناملها بين الحين والحين.

وفجأة أيضا ، برز الشاب الألمانى من داخل المطعم.

ولمحت سحابة حمراء تطوف فوق وجه ليديا.. ورأيتها تتشبث بيديها فى مسندى المقعد، ثم تغطس فيه، وتميل ناحيتى كأنها تحتمى بى.

ووقف الشاب الألمانى ينظر إلينا بعينين باردتين كالثلج.. ثم اقترب منا فى خطوات ثابتة ووقف فوق رأسينا.. وسلط عينيه علىّ وبين شفتيه ابتسامة لزجة لا معنى لها.

ولم استرح له.. شعرت بالتقزز منه، ورفضت أن أدعوه إلى الجلوس، أو أصافحه، ولكن ليديا رفعت إليه عينين مرتعشتين، وأطالت النظر فى جلستها نحوى كأنها تحتمى بى.. ثم التفتت إلىّ وقالت بصوت خفيض تقدمه لى:

— رينهارت..

وكنت مضطرا بعد ذلك أن أصافحه وأن ادعوه إلى الجلوس، فجلس وهو يحاول أن يتودد إلىّ بابتسامة كبيرة، ودار بيننا حديث عجيب، بين ألمانى وإيطالية وعربى، والألمانى يعرف بضع كلمات إنجليزية.. والإيطالية تعرف بعض كلمات فرنسية.. والعربى ـ أنا ـ يتكلم الإنجليزية والفرنسية فلا يفهم الآخران من اللغتين شيئا.. وأراد رينهارت أن يتغلب على صعوبة الأحاديث بيننا فأخذ يعرض علينا بعض ألعاب المائدة.. ألعاب سمجة!

وحان وقت الغداء.. وطلب كل منا غداء.. وأصرت ليديا على ألا تأكل شيئا من اللحم..

وسألتها..

— لماذا ؟

قالت كأنها تتهمنى بالكفر :

— إننا فى يوم الجمعة .. واللحم يوم الجمعة حرام ؟!

ودهشت .. دهشت أن أجد فتاة ترتدى البنطلون والبلوزة.. ومتدينة إلى هذا الحد.

وبعد الغداء دعوت ليديا لتناول الشاى فى حديقة الفندق الذى أقيم فيه.. فوق الجبل.. وقبلت فورا.. ثم ترددت قليلا.. وقالت فى حياء:

— ورينهارت..

واضطررت أن أدعو رينهارت أيضا.. وركبنا سيارتى، وصعدنا الجبل ورينهارت يتحدث طول الطريق عن السيارة، ويتحسس أجزاءها.. ونظرته الباردة تضج بالسخط.. ثم يلتفت إلى ليديا ويسكب عليها هذه الابتسامة التى يحاول أن يسلب بها إرادتها.

وجلسنا فى حديقة الفندق نتناول الشاى.. وأنا أرقب الاثنين وأحاول أن اكتشف العلاقة التى تربطهما.. ورينهارت لا يزال يسكب ابتسامته على ليديا.. وليديا تنظر إلى عضلات ذراعيه، وعضلات صدره، كأنها تشهق بعينيها.

وانتهى الشاى..

وكان يجب أن يعتذرا وينصرفا.. ولكن ليديا ظلت ساكتة.. وبدأت الشمس تغيب.. وفجأة قال رينهارت فى حدة:

— أظن يجب أن ننصرف.

وقالت ليديا كأنها فزعت :

— لا .. لا .. لنبق قليلا !

وقال رينهارت وهو أكثر حدة :

— إذن .. سأنصرف أنا !

وقالت ليديا فى توسل :

— لا .. ابق قليلا ..

ثم التفتت إلىّ وقالت بسرعة :

— إن هناك مرقصا فى آخر البلدة، هل تريد أن تذهب إليه الليلة؟

ونظرت إلى الاثنين فى دهشة، ثم قلت بلا مبالاة :

— لا مانع ..

ولم أكن أريد أن اذهب إلى المرقص، والواقع أنى لا أجيد الرقص، ولا أحبه.. ولكن كان هناك شىء يجذبنى إلى هذين الاثنين..

وتهلل وجه ليديا فرحا عندما وافقت على الذهاب إلى المرقص.

وانكمش وجه رينهارت..

وقلت لليديا :

— يستحسن أن تذهبا الآن إلى فندقكما لتغيرا ثيابكما.. وسألحق بكما بعد أن أغير ثيابى !

وقال رينهارت :

— حسنا ..

وهَبَّ واقفا ..

ولكن ليديا صاحت فى فزع وإصرار :

— لا .. لا .. إن السيد يستطيع أن يصعد الآن ليبدل ثيابه، وسننتظره هنا.. وبعد ذلك نمر على فندقنا فى طريقنا إلى المرقص.

ونظر إليها رينهارت فى سخط..

ووافقت أنا ، وصعدت إلى غرفتى والدهشة تملأ رأسى..

إن ليديا تصر على أن أبقى معها.. وهى تصر أيضا على أن يبقى رينهارت معنا.. إنها تحتمى بى منه ولكن مم تحتمى.. ماذا يخيفها منه.. ثم إذا كانت تخافه فلماذا لا تتخلص منه ، وقد أعطيتها أكثر من فرصة لتتخلص منه.

وعدت إليهما.. ولمحت ليديا تسحب يدها من يد رينهارت بمجرد أن رأتنى، ثم ركبنا السيارة، وعلمت فى الطريق أنهما يقيمان فى فندق واحد.. وأنهما التقيا بالأمس فقط.. وأن ليديا تعمل موظفة فى بنك مدينة «فرارا»

إحـدى مـدن الـريف الإيطـالى، رغم أنها تحمل شهـادة فى التـدريس.. وأن رينهـارت عامـل فى أحد مصـانع ميـونخ بألمانيـا، وقـد جاء فى أجـازة إلى سيرميونى، راكبا موتسيكل.. وسيعود إلى ميونخ غدا.

وانتظرتهما أمـام الفندق إلى أن غيرا ثيـابهما.. وعندمـا نزلت ليـديا من الفندق، اتجهت إلى تمثـال للسيدة العذراء معلق فى حائط بيت ومـوقد تحته شمعتـان، وركعت تحت أقـدام التمثـال نصف ركعـة، ورسمت عـلامـة الصليب على صدرها.. ثم ركبت السيارة.

وفى المرقص ، لم أراقص ليديا.. تركت كل الرقصات لرينهارت.. وأخذت أرقبهما من بعيـد.. وقد راقصتـه ليـديا أول رقصـة مبتعـدة عنه .. وكـان يحاول أن يقـربها منه .. فكـانت تقاوم.. وفى الـرقصة الثـانية اقتربت منـه بعض الشـىء.. ثم اقتربت أكثـر فى الرقصـة الـرابعة.. ثم أصبحت تـرقص وهـى ملتصقة به، ورأسـها مائل على كتفه، وخدها على خده.

وبعد الرقصة الخامسة عادت ليديا إلى المائدة وهى تسير كأنها فى حلم.. عيناهـا مكسرتان، وشفتاهـا منفرجتـان.. وخطواتها ضعيفة.. ومـا كادت تلقى بنفسها على المقعد، حتى صاح رينهارت:

— هيا بنا إلى الفندق..

ومالت ليديا ناحيتى وقالت فى فزع :

— لا .. لا .. لا يزال أمامنا كثير من الوقت ..

وقال رينهارت وهو يسكب عليها نظرته :

— يجب أن نعود ..

والتفتت ليـديـا إلىّ كأنها تستنجـد بى.. ثم عـادت تلتفت إلى رينهـارت قائلة:

— أرجوك .. لنبق قليلا .. تعال ارقص هذه الرقصة أيضا..

وراقصها رينهـارت مرة أخرى.. وعندمـا عاد بها كان يبـدو أنها فقدت كل مقـاومتهـا.. وحملت حقيبتهـا فى صمت.. وقمت معهما لأوصلهما إلى الفندق..

وطوال الطريق كنا صامتين نحن الثلاثة.. وكنت أستطيع أن ألمح ذراعى رينهارت ملتفة حول كتف ليديا، وخدها نائم فوق عضلاته.

ووصلنا الفندق..

ونزلا من السيارة..

وشكرتنى ليديا بكلمة خافتة ضعيفة، لم أسمعها، وصافحنى رينهارت وشكرنى باللغة الألمانية.

وبقيت داخل السيارة أشعل سيجارة، وانظر خلفهما وهما متجهان إلى باب الفندق.

و..

لم تكد ليديا تصل إلى باب الفندق، حتى استدارت والتفتت إلىّ وصرخت :

— انتظر ..

ثم جرت وحدها نحوى.. وقفزت داخل السيارة بجانبى، وهى تقول :

— إنى أريد أن أشرب فنجان قهوة ، خذنى إلى أى مكان أشرب فيه قهوة..

قلت فى دهشة :

— ورينهارت ..

قالت كأنها تأمرنى :

— دعه .. أرجوك .. أسرع ..

وانطلقت بالسيارة، ورينهارت واقف ينظر إلينا فى غباء ، ويسكب علينا نظراته الباردة !



وعدت بها إلى بهو الفندق الذى أقيم فيه.. وطلبت لها القهوة..

والساعات تمر، وهى لا تتحرك ، صامتة ، شاحبة ، أناملها تحتضن الصليب المعلق فوق قلبها.

وبدأت أشعر بالتعب .. والملل.. وتثاءبت .. فلم تلحظ حاجتى إلى النوم.. وقلت لها بصراحة:

— إنى تعب ..

قالت فى رجاء :

— إنى أريد فنجانا آخر من القهوة !!

ثم ..

نظرت فى ساعتها المعلقة فى معصمها، وقالت كأنها تحادث نفسها :

— الساعة الخامسة.. إن رينهارت الآن فى طريقه إلى ميونخ..

ثم قفزت واقفة ، واستطردت :

— سأعود إلى الفندق .. شكرا !

●●●

وفى اليوم التالى خرجت من الفندق ونزلت إلى شوارع البلدة الضيقة، والتقيت بليديا صاعدة، ولم تتوقف ؟ إنما أحنت لى رأسها من بعيد، وابتسمت لى ابتسامة ملأت شفتيها وعينيها، ولوحت لى بيدها، وصعدت إلى القمة.. قمة الجبل.


هـبة لاثنين

إن كل لقـاء بين أى فتـى وفتـاة، يبـدأ بـالأمل.. الأمل فى لقـاء آخـر.. الأمل فى حب.. الأمل فى زواج.. الأمل فى أى شيء.. ماعدا أنا..

فكل لقـاء بينى وبين أى فتـاة يبدأ بـاليأس.. اليأس من كل شيء!

وأنـا مهندس جيولـوجى فى إحدى شركـات التعدين.. ومقـر عملى فى شبه جـزيرة سينـاء. هناك فى المنـاجم.. فوق قمة الجبل.. بعيـداً.. بعيـداً عن الحياة.. وكنـت أزور الحياة مـرة كل شهـرين. فأنزل من فوق الجبل، وأسافر إلى القاهرة،وأقضى فيها يومين، ثم أعود إلى الجبل.

وخـلال هذين اليـومين كنت ألتقى بفتيات.. كنت ألتقى بهن بين أفـراد عـائلتى.. وفى النادى.. وكثيرات منهن أثـرن اعجـابى.. وبعضـهن خفق لهن قلبى.. وكنت أهم أحيانـا بأن انساق فى الحديث مع واحـدة منهن.. وأتقرب إليها.. و.. اغازلها.. ولكن ما جدوى الحديث.. وما جدوى الغزل.. انى عائد غداً إلى الجبل.. غدا لن استطيع أن أتم حـديثى معها.. لن أستطيع ان أتصل بها بالتليفـون كما يفعله بقية الشبـان.. لن استطيع أن احدد معها مـوعداً للقاء.. سأبتعـد عنها إلى حيث لا أراهـا، ولا ترانى.. سأغيب عنهـا شهرين، ومن المستحيل ان أطلب من فتاة قابلتهـا لأول مرة، ان تنتظرنى شهرين إلى أن أعود وأتم حديثى معها. مستحيل!

وكـان هـذا الاحساس بـاليأس.. يجعلنى أجلـس بين البنات صـامتـاً منطويا، انظر اليهن نظرات مختلسة.. واتنهد.. تنهيدة اليأس!

ثم كنت أعـود إلى الجبل، وفى رأسى صور للبنات الـلاتى التقيت بهن فى القاهرة.. أتصـورهن وكل منهن لها شاب يلاحقهـا، ويغازلها، ويحدثها فى التليفون.. وكل منهن تخرج إلى لقـاء.. وأنا.. أنا لا نصيب لى فى كل هـذا.. أنا

اليأس.. وكل نصيبى من الأمل هو ان أفـوض والدتى فى ان تخطب لى احدى البنات.. واتـزوجها بلا حـديث، وبلا غزل، وبـلا حب.. ثم احملها معى إلى الجبل، كما احمل حقيبة ثيابى.. وأنا لا أريد ان اتزوج مثل هذا الزواج.. لا.. أنا أريـد فتاة أفهمها وتفهمنى،واحبهـا وتحبنى، قبل ان نتزوج.. ولا أمل لى فى التفاهم ولا فى الحب..

وكنت فى الجبل أحـاول أن اعـوض نفسى عن بنـات القـاهـرة، ببنـات خيالى.. كنت أقص صـور الممثلات والنساء من المجـلات الأجنبية، واغطى بها جدران حجـرتى.. واستلقى فى فراشى وآخـذ فى التحدث إلى صــاحبات الصـور.. كنت احـدثهن بصوت عـال مسمـوع.. انظـر إلى صورة مـارلين مونرو، وأقول لها:

— أنا زعلان منك يا مارلين .. كده تسيبينى لوحدى!

وانظر إلى صورة جينا لولو بريجيدا، وأصيح فيها بصوت غاضب:

— إيـه ده يـا جينا .. ايـه الحاجـات اللى بتعمليهـا دى.. لازم تحترمى نفسك!

ولكن ..

لم يكن هذا يكفى ..

كان يجب ان انفس عن الطاقة العاطفية الهائلة التى تعتلج فى قلبى..

كان يجب أن أحب ..

ان احب حباً يعطينى ويأخذ منى..

وأحببت ..

أحببت المنجم .. والجبل..

صـدقنى لقـد احببتهما.. حبـاً فيه كل عنـاصر الحب.. فيـه الشـوق.. والغيرة.. والفرح.. والغضب..

كنت أقوم من النـوم ملهوفا إلى رؤية المنجم.. واهـرع إليه.. كأنى ذاهب إلى لقـاء حبيبتى.. واتطلع إليـه، وألمس أحجـاره.. كأنى اتطلع إلى حبيبتى وألمس وجههـا.. وكنت أغـار عليـه من العمال ومن زمـلائى المهنـدسين..

وأغضب وأثـور إذا اخطأ واحد منهم فى حقـه.. ثم كنت اتلقى المعدن الـذى يخرج منه كأنى اتلقى هدية حبيبتى..

وفنيت فى حبى..

كنت أعرف كل شبر فى المنجم.. وكل حجر فيه.. وكنت أعرف كل شبر فى الجبل، وكل قطعـة منـه.. أعـرف هضبانـه ووديـانـه.. أعـرف ما فـوقـه وما تحته.. وأعرف أهله وسكانه، وكل قدم تخطو عليه..

ثم كنت أعود فى المساء.. واغتسل.. واحلق ذقنى.. وأرتدى أفخر ثيابى.. ثم اجلس لأتنـاول عشائى، وصـور المنجم والجبل فى خيالى، كأنى اتنـاول عشائى مع حبيبتى..

ومر عامان، منحتنى الشركة خلالهما أكثـر من علاوة، وأكثر من ترقية، مكافأة على عملى.. على حبى.. وصدقنى انى لم أكن أفـرح بالعلاوة والترقية قدر فرحتى بحبى.. قدر فرحتى بالهدية التى يمنحها لى المنجم كل صباح..

ثم ..

ثم نزلت من الجبل، وسافرت إلى القـاهرة.. وذهبت إلى النادى.. وقدمنى صـديق إلى بثنية.. وجلسنـا نتحدث، حـديثاً هـادئاً.. وأنا أنظـر إليها هـذه النظـرات المختلسة المليئـة بـاليأس.. انها جميلـة.. هذا النـوع من الجمال الهادىء الـذى تحترمه أكثـر مما تشتهيـه.. وتنهدت.. تنهيـدة اليأس.. ثم ما لبث صـديقى ان انسحب وتركنـا وحدنا.. ووجـدت نفسـى ـ بـلا تعمد منى ـ احـدثها عن المنجم وعن الجبل. كنت اتحدث بحماس وتـدفق.. كأنى ابثها حبى.. ربما كنت فعلاً ابثها حبى..

ورفعت عينى إلى عينيهـا اثنـاء الحديث، فـوجـدت فيهما نـوراً.. كأنها تشـاركنى حماسى. كأنها تشـاركنى حبـى للمنجم والجبل.. كأنها تعيش حياتى!

وتـوقفت عن حـديث المنجـم والجبل، وقلت لها بجـرأة لا أدرى من أين واتتنى:

— اسمعى .. أنا مسافر غـداً صباحاً إلى الجبل.. ويجب ان أقول لك كل

شيء الآن.. انى احس اننى مرتبط بك.. لا أدرى، قد يكون حباً.. وقد يكون شيئاً آخر.. ولكنى متأكد من احساسى بأنى مرتبط بك.. قد يكون غريباً ان أحس بهذا الاحساس، ونحن لم نلتق إلا الآن.. ولكن هذا هو ماحدث.. فإذا كنت تشعرين نحوى بنفس الاحساس.. فانى سأعود بعد شهرين.. فى يوم ٥أكتوبر.. وسأحضر إلى هنا فى الساعة الخامسة وسأجلس على نفس المائدة.. أرجو ان أجدك!

ثم قمت فجأة، وصافحتها وانصرفت.. وهى لا تزال تنظر إلىّ ، وفى عينيها نور، وبين شفتيها ابتسامة..

وعدت إلى الجبل ..

وقضيت شهرين فى قلق .. كنت ادخل المنجم واسأل أحجاره عن بثينة.. واتطلع إلى قمم الجبل واسألها عن بثينة.. وادخل حجرتى وانظر إلى صور الممثلات المعلقة فوق الجدران واسأل كل واحدة منهن عن بثينة.. وكنت أحيانا اتصور أنها فى انتظارى.. واحيانا اتصور انها نسيتنى وسخرت من حديثى إليها.. ثم خيل إلىّ مرة انى اخونها مع صور الممثلات المعلقة فوق جدران غرفتى، فأمسكت بهذه الصور ومزقتها كلها..

و..

وخيل إلىّ ان المنجم والجبل قد غضبا منى.. كأنهما يغاران من بثينة.. إن الهدية التى اتلقاها من المنجم كل يوم قد نقصت.. لعله غاضب فعلاً.. ولكن ماذا أفعل.. انه إحساس أقوى من إرادتى..

ومر الشهران..

وعدت إلى القاهرة ملهوفاً.. فى نفس التاريخ.. وفى نفس الموعد، ذهبت إلى النادى..

ووجدتها ..

وفى عينيها نور، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة..

واتصلت بمركز الشركة فى القاهرة وحصلت على أجازة خمسة عشر يوماً..

ثم ..

عدت إلى الجبل ..

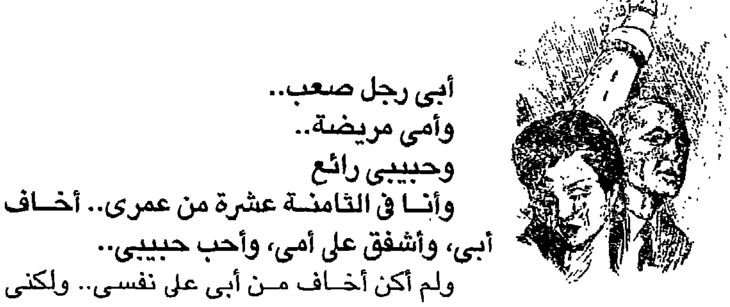
وعادت معى بثينة ..

إن زوجتى تدخل معى المنجم كل صباح، وهى ترتدى بنطلوناً وحذاء كالذى يرتديه العمال.. وهى تحب المنجم.. ان الهدية التى يسخو بها علينا كل يوم، قد زادت.. أصبحت هدية لاثنين..

●●●



أين يقف الله



أبى رجل صعب..
وأمى مريضة..
وحبيبى رائع
وأنـا فى الثامنـة عشرة من عمرى.. أخـاف أبى، وأشفق على أمى، وأحب حبيبى..

ولم أكن أخـاف مـن أبى على نفسى.. ولكنى كنت أخـاف منـه على أمى.. لم أكن اهتز عنـدمـا يسبنى ويصرخ فى وجهى ولم أكن أتألم عندمـا يضربنى.. أحيانـا بيده، وأحيانـا بالشلوت، وأحيـانا بـالشبشب.. إنى أعرفـه.. أعرف عقليتـه الـرجعية، ونـزعة السيطـرة التى يفرضـها علينا، وعناده، وانانيتـه.. وقد ورثت عنه العناد، فعودت نفسى من صغرى على الاستهـانة بـه، والسخريـة من عقليته.. ولكنـه لم يكن يصب غضبه وقسـوته علىّ وحـدى.. كان عندمـا يغضب منى أو من أخى، أو من خادمتنا عزيزة، يخص أمى بالجانب الأكبر مـن ثورته.. يستدير إليها وهى راقدة فى فـراشها.. مشلـولة.. وتنطلق الألفـاظ القاسيـة من تحت شـاربه كـالـرصـاص.. ألفـاظ تقتل.. وأرى وجــه أمى يمتقع.. كأنها ستمـوت.. وشفتيها ترتعشان كأنهما تلفظ أنفاسـها.. ورموشـها تهتز فوق نظرة هلع.. فأخاف عليها.. أتألم لها.. ثم أراها تمد يدهـا الهزيلة وتلتقط يد أبى الواقف أمامها منفوشا كالديك الرومى.. وتقبلها.. وهى تقول فى صوتها الممزق :

— معلهش يا حسنين.. المسامح كريم يا خويا.. حقك على .. ما تعكرش دمك !

وأكره أبى..
وأخاف منه..
أخاف منه على أمى..

ومن أجل الخوف كنت أطيعـه، وكنت أتملقـه، وكنت أرضـخ لسيطرتـه.. ولم يكن يسمح لى بـالخروج وحـدى.. ويحتفظ بـآلة التليفـون فى دولابـه الخاص ويغلق عليهـا بـالمفتـاح، ولا يخرجها إلا إذا أراد هـو ان يتحـدث.. ويحرم على أن ألبس حـــذاء بكعب عـال، أو أضع الأصبـــاغ علىّ وجهى، أو

أذهب إلى الحلاق لأساوى شعرى.. رغم أنى فى الثامنة عشرة من عمرى..

ومن خلف كل هذه القضبان التى زرعها أبى حولى .. أحببت.. أحببت أحمد.. وكبر الحب فى قلبى حتى أصبح أقوى من القضبان.. وبدأت أتحايل لأخرج للقاء أحمد !

وأبى رغم جبروته.. رجل ساذج !

كل الآباء سذج..

وكل الحيل التى ابتكرتها أفلحت.. وأصبحت أخرج للقاء أحمد .. كنت ألقاه مرة كل شهر.. ثم أصبحت ألقاه مرة كل اسبوع. ثم مرتين فى الأسبوع.. وأبى مطمئن سعيد!!

ولم يكن بينى وبين أحمد شىء أخجل منه.. لو كان أبى عاقلا، ولو كانت أمى سليمة.. لقلت لهما كل ما بينى وبين أحمد، بلا خوف، وبلا حرج..

كل ما كان بينى وبينه حب.. حب كبير.. حب أطهر من أنفاس الملائكة.. ولم يكن لقاؤنا سوى أحلام.. نسير فى شارع الجبلاية، يدى فى يده، ونحلم.. نحلم بيننا..

وتعودنا أن نفترق عندما نصل الى ميدان سعد زغلول.. نفترق على موعد جديد.. وأعبر كوبرى قصر النيل وحدى، وأسير حتى ميدان التحرير، ومن هناك أركب الأوتوبيس إلى بيتى..

إلى أن كان يوم..

وكانت يدى فى يد أحمد ، ونحن سائران بجانب سور حديقة الأندلس.. وفجأة.. رأيت عمى أمامى.. يبحلق بعينين دهشتين فى وجهى..

وفى برهة خاطفة ارتفعت فى مخيلتى صورة أبى القاسى، وأمى المريضة.. وارتعشت.. ارتعشت من تحت ثيابى..

وصرخ عمى وهو يقف فى مواجهتى كأنه يمنعنى من الهرب:

— إيه ده يا بت.. مين اللى معاكى ده ؟!

إن عمى ألعن من أبى..

ودون أن أفكر، أجبت بسرعة :

— حضرتك مين؟

وصرخ:

— با اقولك مين اللى معاكى ده ؟ !
وصرخت صرخة أعلى من صرختة :
— أنت مين أنت.. أنا ما عرفكش.. أنت مالك ومالى..
واتسعت عينا عمى كأنه جُنّ .. وصرخ :
— أنا مين يا مجرمة.. مش عارفة أنا مين..
وعدت أصرخ :
— أيوه ما اعرفكش.. إيه البلاوى دى. إبعد عنى احسن لك ..
وصرخ عمى:
— يا بت فتحى عينك فى .. أنا عمك .. عمك يا بجحة يا قليلة الأدب..
والتفت إلى أحمد وأنا أهز كتفى ببرود، وقلت :
— ياللا بينا يا أحمد.. ده باين عليه راجل مجنون..
وأحمد واقف كالأبله ، لا يستطيع أن يتبين حقيقة الموقف..
وعاد عمى يصرخ..
وأنا أصرخ..
والتف الناس .. ناس كثيرون.. وعسكرى البوليس..
وصرخ عمى أمامهم :
— دى بنت اخويا .. أنا عمها
وصرخت أمامهم :
— أنا ما عرفوش.. ما شفتوش قبل كده.. ده مجنون .. ابعدوه عنى..
ودفعه أحمد فى صدره..
وشده الناس من أمامى..
وصاح فيه واحد منهم:
— خلاص يا أخينا.. اعقل بلاش فضايح ..
وقال آخر :
— يا راجل يا شايب .. اتلم ..
وقال العسكرى :
— أنت حاتفضها، ولا تمشى قدامى على القسم !
لقد صدقنى الناس..
ونظر إلىّ عمى والنار تندلع من عينيه.. ثم تركنى وخرج من بين زحام

الناس مهرولا.. وكنت أعلم انه سيذهب إلى بيتنا ليبلغ أبى بالحادث.. فأسرعت أنا وأحمد.. وركبت سيارة أجرة.. كنت أعلم أن عمى سيركب الأوتوبيس..

ووصلت إلى البيت قبله..

وغيرت ثيابى بسرعة، ثم جلست انتظر فى غرفتى فترة ، وأنا أضغط على قلبى بيدى.. واستجمع اعصابى وإرادتى، لأبدو هادئة..

كان يجب ان استمر فى تمثيل الرواية..

ودق جرس الباب.. وشددت نفسا عميقا من صدرى.. وقمت لأفتح الباب بنفسى، وأنا أرتدى ثوب البيت.

وفتحت الباب..

إنه عمى..

وقلت وأنا أرسم ابتسامة فوق شفتى:

— أهلا، ازيك يا عمى؟

وصرخ :

— عمك يا مجرمة..

ثم رفع يده وصفعنى .. صفعنى بقسوة.. وارتج جسدى كله لصفعته .. وصرخت:

— إيه ده .. أنا عملت إيه يا عمى.. يا بابا .. يا بابا.. الحقنى يا بابا..

وبدأت أبكى..

وجاء أبى مهرولا، وهو يصيح :

— إيه.. فيه إيه .. حصل إيه..

وقال عمى وهو يرتعش :

— أنا لسه شايفها من ربع ساعة ماشية مع راجل جنب جنينة الأندلس !

وصرخت :

— أنا .. أنا يا عمى.. حرام عليك يا عمى.. حرام عليك تظلمنى !

وصرخ عمى :

— أيوه أنتى .. وكنتى لابسة فستان أزرق !

وقلت وأنا انشج بالبكاء :

— هو مـا فيش حد عنـده فستان أزرق إلا أنـا.. حرام عليك يـا عمى.. حرام..

وصرخ عمى :

— حـرمت عليكى عيشتك.. ده أنـا شـايفك بعنيـه دول.. يـا بجحـة.. يا وقحة..

وأبى واقف مشدوه.. إن الاتهام أكبر من أن يصـدقه.. إنه لا يستطيع أن يصدق بسهـولة أن ابنتـه تسير مع رجل فى شـارع.. بعد كل هـذه القيود.. وبعد كل هذه القسوة.. لا يمكن.. مستحيل !!

وقال أبى وهو حائر :

— أنت متأكد أنك شفتها يا خليل يا اخويا ؟!

وقال عمى ووجهه مزدرد :

— طبعا متأكد.. زى ما أنا شايفها دلوقت..

وصرخت :

— ما تصدقوش يـا بابا .. دى خديجة صاحبتى موصـلانى لغاية باب البيت هى وخدامتها..

وظهـرت على وجه أبى أمـارات الخطورة، كأنـه أصبح شرلوك هـولمز.. وأخرج آلة التليفون من دولابه، واتصل بصديقتى خديجة فأكدت له ما كنا قد اتفقنا عليه قبل أن اخرج للقاء أحمد..

وعاد أبى وقـد بدت الـراحة على وجهـه.. انه يفضل ألف مـرة أن يكون عمى كاذبا.. وقال وظل من ابتسامة الراحة يتراقص فوق شفتيه :

— ما يمكن تكون غلطان يا خليل يا خويا..

وقال عمى وصراخه يكاد يصل الى الجيران :

— أنا مش غلطان .. أنا شايفها بعنيه دول..

وقال أبى :

— لكن دى صاحبتها بتقول أنها وصلتها لغاية باب البيت..

وسكت عمى قليـلا وهـو يخور كالثـور، وعينـاه تنهشـان وجهى.. ثم انطلق فجأة صارخا :

— طيب خليهـا تحلف على المصحف.. أنـا راضـى انها تحلف على المصحف..

وارتجفت ..

لا .. لا استطيع أن أقسم بالقرآن.. لا استطيع ان أغضب الله.. قد أغضب أبى.. قد أغضب أمى.. ولكن، الله.. لا.. لا استطيع

إنه قسم عظيم..

قسم يقتلنى..

ولكن أمى مريضة، وقد تموت.. وأبى مغرور وقد يحطمه الصدق .. و..

ونظر إلىّ أبى فى ثقة، وقال كأنه ينهى المشكلة:

— احلفى على المصحف يا نادية..

ولا زلت ارتجف ..

وأمى راقدة.. مشلولة.. ووجهها فى لون ملاءة السرير.. وشفتاها ترتعشان كأنها تلفظ أنفاسها..

وأبى واقف ينظر إلىّ فى اطمئنان .. كأنه وضع حياته بين يدى.. واطمأن..

وأنا لا أنطق..

وجذب أبى المصحف الموضوع بجانب فراش أمى، ووضعه بين يدى، وهو يقول مبتسما :

—احلفى يا نادية..

وتمتمت فى صدرى: «سامحنى يارب ». ورفعت المصحف إلى شفتى وقبلته، ثم رفعته فوق عينى.. ونطقت بالقسم الكبير :

— والمصحف الشريف أنى لا شفت عمى، ولا عمى شافنى النهارده.. ولا هوبت ناحية جنينة الأندلس..

وكاد المصحف يسقط من يدى.. احسست بقلبى ينقبض.. وغمام أسود يملأ عينى.. أحسست كأن السماء تتجمع لتسقط فوق رأسى صاعقة..

وسمعت أبى يتكلم، وكان صوته يأتى إلىّ من بعيد، قائلا:

— أهى حلفت يا سيدى.. استرحت !

وظل عمى ينظر إلىّ والنار فى عينيه، ثم خطف المصحف من يدى، قائلا:

—طيب هاتى..

ووضع المصحف فوق عينيه، واقسم القسم الكبير:

—والمصحف الشريف أنى شفت نادية بنت أخويا النهارده، ماشية مع راجل جنب جنينة الأندلس..

ثم ألقى المصحف على المائدة فى عصبية.. وخرج من البيت وهو يصيح :
—خد بالك من بنتك يا حسنين يا اخويا.. ما تخليهاش تفضحنا وتسود وشنا

وسقط أبى جالسا فوق الأريكة، وسقط رأسه فوق صدره، وتعقد وجهه .. ثم رفع عينيه إلىّ برهة.. وعاد وأسقط رأسه فوق صدره ..

وأمى يزداد وجهها امتقاعا.. وتنظر إلىّ .. ثم تنظر إلى أبى.. ثم تنحدر دموع كبيرة تعبة فوق خديها..

وجريت إلى غرفتى الملاصقة لغرفة والدى.. وألقيت نفسى فوق الفراش وبكيت.. بكيت كثيرا .. كأنى اتوسل بدموعى الى الله.. يارب ارحمنى.. يارب لا تنتقم منى.. يا رب إنى لم ارتكب إثماً.. إنى أحب حبيبى.. وأحب أمى .. وأحب أبى.. وأنت رب الحب.. وقد اقسمت بكتابك الكريم كذبا لأحمى حبى.. يا رب أنت أعلم بما فى قلبى.. لا تنتقم منى.. لا تعاقبنى.. إنى خائفة يا رب.. خائفة منك.. خائفة على حبى.. على أمى وأبى وحبيبى.. سامحنى.. ارحمنى.. ارحمنى يا رب..

و..

وسمعت جرس التليفون يدق فى غرفة أبى.. وسمعته يصرخ فى هلع:

—ايه.. نقلتوه المستشفى.. طيب أنا جاى حالا..

ثم سمعته يخاطب أمى قائلا:

—أخويا انشل.. ونقلوه المستشفى..

ثم سكت قليلا، وعاد يقول:

—يعنى كان لازم يحلف على المصحف.. ده المصحف كبير.. استغفر الله العظيم يا رب..

—ثم دخل إلى غرفتى مهرولا، وقال لى وهو يلهث:

—قومى يابنتى البسى وتعالى معايا المستشفى نشوف عمك جراله إيه.. ولازم تسامحيه.. سامحيه من كل قلبك.. يمكن ربنا ياخد بإيده..

وقلت له والدهشة تستبد بى، وقلبى متجه إلى الله:

— مسامحاه يا بابا ..



أين تذهب أمى ؟

ان أمي جميلـــــة.. صغيرة.. أجمل مني.. والفرق بين عمرى وعمرهـا لا يزيد عن سبعة عشر عـامـاً.. انها فى الثـالثـة والثـلاثين من عمرها.. ورغم ذلك فلم أر أما أشد منها حرصاً على التقـاليـد، ومظاهـر الشرف.. ولم أر أمـا أقسى منها على ابنتها.. انها تريد منى ان ابقى دائما بجـانبها.. وتعتبر خـروجي وحـدى إلى الشارع جريمة.. وتعتبر حديثى فى التليفـون عاراً، حتى لو تأكدت من انــى احادث إحدى صديقاتي.. وإذا تركت ثوبى يكشف عن أكثر من رقبتي، فهذه فضيحة، لا يمكنها السكوت عليها..

وقد مات أبـى منذ سنتين.. مات فى عز شبابـه.. الله يرحمه.. ولم تخفف أمى من تزمتها، بعـد وفاته.. بالعكس.. وازدادت تـزمتا، ازدادت قسوة علىّ وعلى نفسها.. انها إلى الآن لا تـزال ترتدى السواد.. ولا تـزال تزور قبر أبى صبـاح كل يـوم جمعة.. ولا تخرج مـن البيت إلا إلى القرافـة أو فى زيـارات متباعـدة لبيت جدى.. ولا يزورهـا من صديقاتها إلا عـدد قليل. اثنتان أو ثلاثـة.. ويزرنها مرة أو مرتين فى العـام كله.. وترفض كل عـرض للزواج.. انها تعتبر من يحدثهـا عن الزواج كأنـه يهينها.. وأنا اعلم انها كـانت تحب أبى.. كـان حبهـا الأول والأخير.. حبها الـوحيـد.. ولكن مهما بلغ بها هـذا الحب، فحرام ان تدفن نفسهـا حية.. وإذا كانت قد قـررت ان تدفن نفسها حية، فحرام ان تدفننى معها..

ورغم ذلك، فنحن لا نعيش فى وسط متـزمت.. اننا نسكن المعـادى، وأنا طـالبة فى مـدرسـة الليسيه.. وكل بنـات الضـاحية وكل سيـداتها، ثم كل زميلاتى فى المدرسة، يعشن حياة متحررة منطلقة، ويقبلن على الحياة ، بكل ما فى الحيـاة من حب ، وضـحك ، ومتعـة.. متع بريئة كثيرة، تحرمنـى منها أمى..

وكان الطريق الوحيد أمامى، حتى اعيش الحياة، هو ان أخدع أمى..

وقد خدعتها ..

وتماديت فى خداعها..

إنها مطمئنــة إلى انى اذهب إلى المدرسة كل صبــاح فى سيارة المدرســة.. وأعــود فى سيــارة المدرســة.. ولكنهــا لا تعلـم انى ازوغ بين الحصص مع بعض زميــلاتى، ونذهب إلى السينما فى الحفــلات الصباحية، أو نــذهب إلى محل البامبو فى شارع سليمان باشــا لنأكل الساندوتش والجاتو.. وكل منا معها حبيبهــا.. أو، الواد بتــاعها.. ثم نعــود إلى المدرسة دون ان يشعــر بنا أحد، ونركب السيارة المدرسية لتعود بنا إلى بيوتنا..

انها لا تــدرى ـــ رغم حرصهــا وتشــددهــا فى مراقبتى ـــ إلى أى مــدى استطيع ان اذهب فى خــداعها.. انها لا تــدرى مثلاً، انى احــادث حبيبى كل يوم فى التليفــون.. احادثه وهى جالســة أمامى.. كل ما هنالك انى احــادثه باللغــة الفرنسية.. وهى لا تعلــم الفرنسيــة.. فقــد تلقت تعليمها فى المدارس العربية، ولم تستمر فى تعليمها إلى أكثــر من الابتدائية.. وكانت تتململ وهى تــرانى اتحدث فى التليفون، وأرى نظــراتها تنطق بــالشك.. والغيظ.. ولكن لا يهم.. ما دامت لا تفهم شيئا مما اقوله.. وآه لو فهمت..

وكنت أحيــانــا أحس كأنى اعــذبها بحديثى فى التليفــون.. وكنت اتلــذذ بتعذيبى لها، كأنى انتقم منها لقسوتها علىّ.. وكانت تصرخ فىّ كأنها لم تعد تحتمل مزيداً من العذاب:

ـــ كفاية كلام بأه..

فأرد فى دلال كأنى اغيظها :

ـــ حاضر يا ماما ..

وأحيانا كانت تصيح فى وجهى:

ـــ تسمحى تقوليلى ما بتكلميش صاحبتك بالعربى ليه؟

فأرد، وأنا ادعى العبط:

ـــ يا مــاما كل صاحباتى بيتكلمــوا بالفرنساوى.. عــاوزاهم يضحكوا علىّ..

وفى مــرة هجمت على لتنتــزع سماعــة التليفــون من يــدى، وتستمع إلى

الصـوت الذى اتحدث إليـه .. ولم اهتـز فقد كنت متفقـة مع حبيبى على ان يحتفظ باخته بجـانبه كلما حدثته فى التليفـون.. وكنت اسمى اخته: بوليس النجدة.. وعنـدما همَّت أمى أن تنتـزع من يـدى سماعة التليفون، قلـت له بسرعة.. وبالفرنسية طبعاً:

— إدى السماعة لأختك..

وسمعت أمى صوت أختـه.. وازداد غيظها وتـركت لى الغرفة سـاخطة، وهى تهمهم:

— مرقعة بنات!

وأكثر من مرة هـددتنى أمى بأن ترفع التليفون من البيت.. ولكنى كنت واثقـة انها لن تنفذ تهديـدها، فـاننا ـــ أمى وأنا وأخى الصغير ـــ نعيش فى البيت وحدنـا.. والتليفون بالنسبة لنا، بمثـابة جرس الخطر.. نـدقه فى بيت جدى، أو فى بيت خالى، كلما ألم بنا شىء..

إلى أن كان يوم..

وكنت فى المدرسـة، واحتجت إلى ان أحـادث أمى فى التليفون لأبلغهـا ان عندنـا حصة اضافيـة، وانى سأتأخـر عن موعد عـودتى.. وكانت السـاعة الحاديـة عشرة صبـاحـاً.. ورد علىَّ الخادم وابلغنـى ان أمى قـد خـرجت.. ودهشت.. فإن أمى لم تتعـود ان تخرج.. ويـوم تخرج فانها تحدد مـوعـد خروجها قبله بأيام، وتعلنه لى..

وقضيت اليـوم الدراسى، وعـدت إلى البيت، وانتظرت ان تبـادئنى أمى بخبر خروجها.. ولكنها لم تفعل.. واضطررت ان اسألها:

— انتى خرجت النهاردة يا ماما؟

وخيل إلىّ انها ارتبكت لسؤالى، وقالت فى تلعثم:

— عرفتى منين؟

قلت فى براءة:

— اصـلى ضربت لك تليفون من المدرسة.. مالقتكيش..

وقـالت والـدمـاء تتصـاعد إلى وجههـا ، ولا تستطيـع أن تـواجهنى بنظراتها:

— آه .. ده أنا كنت لسه حاقولك.. أصل مرات خالك ضربت لى تليفون.. وكانت عيانة شوية.. رحت ازورها..

ولم اصدق أمى.. لا أدرى لماذا.. ولكنى لم اصدقها.. قلبى حدثنى بأنها تكذب علىّ..

وبعد يومين احتجت مرة ثانية ان اتحدث إلى أمى فى التليفون من المدرسة.. انها ليست فى البيت.. خرجت.. وعدت فى المساء.. فلم تبلغنى خبر خروجها.. وسكت أنا.. لم اقل لها انى حادثتها فى التليفون..

ولم أنم ليلتها.. قضيت الليل اتقلب على جنبى.. واتساءل أين تذهب أمى؟ وإذا كانت تذهب لزيارة أقاربها، فلماذا لا تصارحنى..

أين تذهب.. هل لها عشيق تذهب إليه.. هذه الأم المتزمتة القاسية، هل لها عشيق.

واحسست بشىء يتمزق فى صدرى.. واحسست كأنى سأصرخ من الألم!

وتعمدت فى اليوم التالى ان اتصل بها فى التليفون.. فى نفس الموعد.. ثم أصبحت اتصل بها تليفونياً كل يوم.. واحيانا أجدها.. واحيانا تكون قد خرجت.. وحسبت الأيام التى تخرج فيها.. انها أيام محددة.. السبت، والاثنين، والأربعاء.. ودائماً فى نفس الموعد.. الساعة الحادية عشرة..

وهى لا تقول لى أبدا أنها خرجت!

ولا أدرى أين تذهب ..

ولا أسألها عن ذلك..

انها فى المساء تدخل حجرتها. وتغلق على نفسها الباب، بالمفتاح.. وتبقى فيها وحدها ساعات.. دون أن أدرى ما تفعله لعلها تبكى.. لعلها تحلم.. لعلها تكتب خطاباً غرامياً..

ثم شىء آخر ..

انها لم تعد تجلس أمامى كلما تحدثت بالتليفون مع حبيبى.. ولم تعد تغتاظ وهى تسمعنى اتحدث باللغة الفرنسية.. وأصبحت انا التى اراقبها، وأجلس أمامها كلما تحدثت فى التليفون.. واغتاظ.. انها تدعى انها تحادث

أمها، أو مرات خالي.. ولكن من يدرى.. لعلها تخدعنى كما اخدعها..

ورغم ذلك فهى لاتزال ترتدى السـواد، ولاتزال تذهب إلى قبر أبى صباح كل جمعة.. يابجاحتها.. كم تجيد الادعاء.. وكم تحرص على المظاهر..

من يكون عشيقها ؟

لا بد أنه رجل متزوج.. أو ربما سـائق سيارة.. والا لتقدم للزواج منها.. ولابـد انه سـافل، منحط، يخدعهـا.. وأمى امرأة سـاذجـة، قطعت عمرهـا منطوية، وليس لها تجارب لتعينها على السير فى هذا الطريق .. القذر..

وتعذبت.

لابد أن لها عشيقا

تعذبت كثيرا.. ليس هنـاك اقسى من عذاب الابنة عندمـا تعرف أن لأمها عشيقا.. انه عذاب الغيرة.. والكـرامة المجروحة.. والمثل الأعلى المحطم.. انى أذهب إلى المدرسـة فيخيل إلىّ أن كل زميـلاتـى يشرن إلىّ ويخرجن لى ألسنتهن ويتهامسن: هذه البنت لأمها عشيق..

وضعفت.. وتلفت أعصابى.. ثم لم أعد أحتمل مزيدا من العذاب..

قررت أن أكتشف الحقيقة بنفسى ..

وفى يـوم الاثنين خرجت من البيـت، واختبأت فى الحديقة، إلى أن جـاءت سيـارة المدرسة.. وضغط السـائق على النفير مرتين، ولما لم يجدنى، اعتقـد أنى مريضة وأنى لن أذهب إلى المدرسة ، فانصرف ..

وخرجت من الحديقة واختبأت فى شـارع جانبى، ووقفت أرقب بيتنا من بعيد.. ومضت الـدقائق ثقيلة مملـة.. وأنا لا اتعب ، ولا أرجع عن رأيى.. إلى أن كانت السـاعة العـاشرةوالربع، ورأيت أمى تخرج من البيت.. وفى يـدها كيس من الـورق تعـودت أن تحمل فيـه خيوط التريكـو. فتبعتهـا دون أن ترانى.. وأنا اختبىء خلف فـروع الشجر، وفى ظلال البيوت.. إلى أن وصلت إلى محطة المعـادى، وركبت القطار.. وركبت نفس القطار، فى عربـة أخرى وعيناى مركزتان على العربة التى ركبت فيها أمى ..

ونـزلت أمى فى محطة بـاب اللـوق.. وسارت .. وسرت وراءهـا، دون أن تلمحنى.. ثم رأيتها تدخل فى عمارة بشـارع محمد فريد.. وأحسست بقلبى

ينخلع، ووقفت برهــة كالمصعوقــة.. انها هنا تلتقى بعشيقهــا.. فى شقة من هذه العمارة.. هذه الأم الآثمة ..

وتمالكت نفسى بسرعــة.. ودخلت العمارة وراءهــا.. وصَعــدت السلم.. صعدت وراءها ، وعيناى مركزتان على قدميها، اللتين تصعدان أمامى .

ودخلت أمى فى إحدى الشقق ..

شقة بابها مفتوح ..

وعلى الباب لوحــة كبيرة مكتوب عليها : «مدرســة فاكس.. لتعليم جميع اللغات »..

ولم افهم شيئا..

ودخلت وراءها، وأنا أحس بنفسى كالعبيطة.. و..

ورأيتها..

جالسة على أحد مقاعد الدراسة..

ورأتنى أمى.. وانطلقت الـدهشة فى وجههــا.. وظلت تنظـر إلىّ ساكتــة.. وقلت لها وصوتى لا يكاد يخرج من زورى :

— بتعملى إيه هنا يا ماما ؟

وقالت هامسة، كأنها تتنهد :

— باتعلم فرنساوى علشان أفهم بتقولى ايه فى التليفون..

وارتميت على صدرها، وبكيت..

بكيت كثيرا..

بكيت كل عذابى ..

وأخذتنى أمى بعيدا عن بقية زميلاتها فى الدراسة وعادت بى إلى البيت.. ورويت لها قصتى كاملة، ووعدتها الا اتحدث مرة ثـانية فى التليفون باللغة الفرنسية..

ولكن..

أتدرى ؟!

إن أمى مصممة على أن تتم تعلم اللغة الفرنسية !!

رقـم الإيـــداع
١٩٩٦ / ٨٢١٠

الترقيم الدولى
977 - 08 - 0788 - 3



